الأعمال الشعرية

محمد عفيفي مطر

ملامح من الوجه الأمبيذوقليسي

دار الشروق


ملامح من الوجه
الأمبيذوقليسي

الطبعـة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص ب ٣٣ البانوراما - تليفون ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

ملامح من الوجه الأمبيذوقليسي

* مدخل *

* برزت على الأرض رءوس كثيرة بلا رقاب ، وهامت أذرع منفصلـة بلا أكتـاف ، وزاغـت عيـون وحيدة تشتـاق إلى رءوس ، وهامت أطراف بلا أنيس ..

* وتـولدت مخلـوقات كثيرة لها وجـوه وصدور تتلفـت إلى جميع الجهات ، حيوانات لها وجه البشر، وبشر لهم رءوس الحيوانات ، ومخلوقات امتزجـت فيها طبيعة الأنثى بطبيعة الذكر.

* سأعلمك كيف تصد قوة الـرياح الدائبة التي تهب على الأرض وتقتلـع الـزروع ، وكيـف تحول سير الـريـاح إذا شئت ، وكيف تجعل الموسم جافـا بعد غزير المطر، وكيف تحول الصيـف الجاف أنهارا تفيـض مـن السماء ، وكيـف تبعث الميت من العالم السفلي إلى الحياة .

* ينبغـي أن تهيم على وجهها ثـلاث مرات خـلال عشرة آلاف موسـم بعيدا عـن صحبة المنعَّمين ، لأنها نشـأت في الفترة التي تسود فيها صور الكائنات الفاسدة ، تلك التي تنتقل من طـريق شاقة في الحيـاة إلى طريق أخرى شـاقة ، فالهواء الجبار يطردها إلى البحر، ويلفظها البحر إلى الأرض الجافة ، وتطـردها الأرض بعد ذلك إلى الشمـس الملتهبة ، ثم تطوح بها الشمس في أعاصير الهواء .

ويتلقاها عنصر عن عنصر، ولكنها تطردها جميعا .

إني أنا الآن روح من هذه الأرواح ، مطرود وهائم بعيدا عن الآلهة لأني وضعت ثقتي في الكراهية المضطربة .

«أمبيذوقليس»

صوتان عن الحق

الحق قد يقال مرتين.

فمرة يقوله العراف

ومرة يقوله السياف

* * *

يقوله العراف

منفجرا بوهج الخرافة

ممتلئا بطحلب السيمياء والعرافة

مطلسما فى عقد الأعشاب والحروف .

يقوله مضبَّبا في الرمز أو مغمغما في كتب التعزيم

أو راقصا مخترقا حواجز التحريم .

* * *

يقوله السياف

ملونا في ظلمة الإباحة

يقوله في نُذُر المطاوعة

وفي شرائع الدوائر المربعة

وفي طقوس الكرم الزَّريِّ أو مصيدة السماحة .

* * *

الحق قد يقال مرتين

فمرة يموتُه العراف

مطوَّحا به على منابر الجرائد المهترئة

ومرة يقوله السياف

ممزقا في الوضم الليليِّ

أو مغتسلا في دمه البريِّ

أو مغتربا منزلقا على حبال النفي

أو منتظرا في السرج المنطفئة

والحق قد يقال مرتين . . .

١٩٦٦

عُقْمُ الاخضــرار والتجســد

أمي ولدتني ذات مساء
فانسربتْ روحي في ضوء المصباح
وهربتُ خلال الظل ولون الماء
ودخلت عبيرا في ذرات الريح
ولبست قميص الصمت
وأكلت الكعك الأسود في أعراس الموت .

* * *

أكْرهني العالمُ أن أتجسد في عينين
(عذبني أني أملك هاتين العينين :

عيناي السوداوان
في ليل القبو الدامي شباكان
بئران انسكبت في أغوارهما النيران
وتعارك صدرُ الأرض ونصلُ الشمس)
هجرتني موسيقى الأفلاك
فهربتُ إلى ليل الأسماك
ودخلت البحر الأبكم والأغوار
فتراكم فوقي الموجُ ، هربتُ إلى الأشجار
عصفورا مشتعلا بالنار
فتهدَّم فوقي سقفُ الهاوية الزرقاء .

جَسَّدني الرعبُ الأخرس في قدمين
(عذبني أني أملك هاتين القدمين :
قدماي الضامرتان
في طرق السعي الباطل مركبتان
واحدة تصعد في الطرق الجبلية
والأخرى تهوي في القيعان)

أكرهني أن أتجسَّد في وجهٍ مهجور
أكرهني أن أتراقص فوق حبال الصوت
فانفضح الراقصُ حين تعَّرى تحت النور. . .

١٩٦٦

في المعـــرفة المـرة

إنني أدخل ـ كالظن ـ إلى أرواحكم
وإلى أجسادكم
أبدأ الرحلة ما بين العروق المعتمة
علَّني أنظر ما يشبه شمسي المظلمة
علني أنظر ما يشبه أعراس الردى في الزحمة المنهزمة . .
ربما قابلني الليل الذي يُجهض في كل صباح
ربما يُسمعني السيف حوار الدم في
اللحم الغريض المستباح .

* * *

عدت منكم بعد أن دوَّخني الليلُ وأعماني الطواف
وارتوت روحي من البؤس الجِبِلِّيِّ الرهيب
لم أجد غير الثمار الحجرية
واللغات الحجرية . . .

لو كنت شــاعرا

لو كنتُ شاعرا يا سادتي القراء
لاغتسلتْ في أحرفي قوالبُ الأشياء
وانفلتَتْ يدي المخبأة
بين السطور فجأة لتنقش المياه بالدماء .

لو كنت شاعرا لمتُّ جائعا
لكنني أتيت من قريتنا السوداء
ولم أعد أذكرها
كأنني ما جعت تحت كرمها الثقيل بالثمر
كأنني ما عشت في حاراتها عريان ظامئا
في موسم المطر

كأن أمي لم تكن عارية الثديين في دروبها
تطعمها سنابلُ الترمُّلِ الطويل
وحينما ينهشني تقلُّبُ الحقول في الضمير
فإنني لا أستطيع أن أعودِ خطوَةَ إلى الوراء . . .

لو كنت شاعرا يا قريتي البعيدة
لانتحرتْ قصائدى كراهَة للأوجه البليدة
أو هربتْ حروفها من غيهب الجريدة
وطعمتْ صداقةَ الهواء .

لو كنت شاعرا لاخترتُ أن أمر في مزالق الأعراف
لكنه السياف
لكنها تجارة الأصداف
وراحة الضمائر المبرَّرة

هذا تخبطي فى الكون والفساد
لو كنت شاعرا ما انغرستْ خطاي في محابر الرماد
لكنني أموت
تشنقنى قصائدي في خيط عنكبوت . . .

وطن لمن يشاء

رأيتُ في عينيكِ شجرَ الأمومة
رأيت فيهما سخاء الطمي والسحائب المعتمة الرحيمة
سمعت صوتك المنقوع في اللبن
مختمرا في عتمة الخرافة
والشعر والعرافة .

بكتْ إليكِ ـ في دمي ـ الأهلَّة القديمة
والقمر الصديء والفصول .

رأيت وجهكَ الممسوح يا أبًا بلا أبناء
لا راضيا ولا مقطِّبا

فابتهلت سنابلي المحترقة
أن تهَبَ المضيَّع اللَّطيمَ من أسمائك الخضراء
علامّةً ونسبا
وشارةً ولقبا .

طعامُكم يقتلني
والجوع في جِبِلّتي يبعثني
الجوع شارتي ولقبي
علامتي ، أمجاد آبائي ، قبيلتي ونسبي . .

١٩٦٦

صوت الخيبة

دخلت غابة الكون وغابة الفساد
فعدت دونها عينين
دخلت غابة الحروف والفواصل المزخرفة
فعدت . . في يدي جمجمتي المجوفة
دخلت غابة الضمير
فعدت في دمي خناجر القصدير
دخلت في عباءة الأحجار للمدينة
فانفتحت أبوابها الحصينة

وحينها استدرت للرجوع
تشبثت أصابع الأحجار

بما ارتديتُ من مناسج الأسفلت
وما ارتديت من خلاخل الأشعار
وما رضعته من لبن الهزيمة
وانطبقتْ مداخل الأزقة القديمة
تقول لي : تعال
فالجوع في القرى وفي المدينة

* * *

الجوع في القرى معشوشبٌ يخضرُّ في حشائش الحقول
يصفرُّ في السنابل
يسودُّ في لفائف الأطفال والوجوه
يبيضُّ في حوائط القبور
يطير حينما تغتسل السماء
ملونا في قزح الأصائل المطيرة . . .

* * *

الجوع في المدينة
يصفرُّ في انسكابة الجدائل
يخضر في المزابل
يسود في حدائق الأسفلت والسكوت
يبيض في القصائد المخنثة
يطير في شوارع الزجاج والأحجار
ملونا في الصحف الفقيرة
معطَّرا بما يفوح من جوارب الأموات في الظهيرة . .

* * *

لقد وُلدتُ ميتا
ونفختُ في صورتي الفصول
وغسلت ملامحي بالجوع والحقول
فجئتكم لكي أقول

أو أموت لو ظللت صامتا . .

١٩٦٦

مناظر صغيرة من ساحات مدينة ميتة

١ـ المجنون المتجول

حذاؤه المطاطُ، والشوارعُ الأسفلتُ، والنهار
نقّالةٌ من نار
تحمله يحملها، تقبله ترفضه الأشياء
يغطس في معاجن الأسفلت، يطفو في
الشوارع الصارخة البكماء
يخطب في أروقة الظهيرة
يُخرج من جيوبه صحيفةً ينثرها في الزحمة الأجيرة
يعارك الهواء.

قال ـ وقد سألته ـ: انتزعت جيفتي من كتب الحقوق
مختبلا منفجر الرأس مضيّعا ما بين ممكن ومستحيل
منْعصرا تدلقني الرياحُ في مدينة الشقوق..

٢ـ الانتحار ثرثرة

يفضحنا النهار لو تسلَّقتْ أكتافَنا من رغوةِ

الشمس فقاقعٌ أو رفعت ثيابنا أصابعُ الهواء

يفضحنا لو غُبِّرت أقدامُنا في طرق الأمام والوراء

تأمرنا ضراعةُ النطقة في الأشياء

أن ننزوي في الليل أن ندخل أيَّ مشرب . . فتلتقي

المسالك التي تقاطعت . . يفضحنا السكوت . .

* * *

الليل حينما زُوِّجَ بالفجيعة

أَوْلدها مدًّا من الحبائل اللفظية التي تصعد عاليًا فعاليًا

ليدخل الأبكمُ في الأصمِّ،

يصبح الوباءُ نكتةً في رحم الذريعة

٣ـ المغنيةُ الشمطاء

في صوتها دياثةُ العجوز
ومدُّها للألف المهموز
غباوةٌ تسفح من صدورنا غمغمةَ الطبيعة
تمسخ فينا صوتَنا المنقوعَ في الرعب وفي خابية الفجيعة
تسوقنا في العُرُس الغبيِّ
أو تطردنا بصوتها من شارع لشارع بلا انقطاع . .

* * *

النهر والشواطئ التي تدوسها حوافر البروق
والشاعر الذي يجلد ـ في أشعاره ـ الأسماعَ
والمطربةُ الدهرية
رمحان غائران في العروق
أغنيةٌ تطردني من ساحة لساحة
تشنقني في الليل والنهار. .

٤ـ تتويج الشاعر

رأيته بالشارب المهدول
ووجهه المصفرِّ والبشاتر التي تبيضُّ في
مفرقه، وصوته المخنَّث المهزول
قلتُ له ـ من غير أن أقول ـ
أأنت من رجوناه، انتظرنا أن يكون رمحنا الأولَ في المدينة
وصوتَنا الأولَ في الصمت، وغنوةً دامية حزينة
تحملنا وتحمل القري التي ترقد في نقَّالة الفصول!

* * *

هذا اغترابُنا في الطرق الملعونة
يدور في سآمة العينين
مستجديا شعائر التتويج
بلكنة غريبة ترقص في اللسان
بلفظة امتهان

للشعر ـ حينما يدور في أفواهنا ـ وللبراءة
الريفية المقدسة .

* * *

رأيته تحت تأرجحات الضوء والظلال
منطفئًا إذا تكلما
مشتعلاً إذا تلصص التساؤُل الماكرُ عن
حقيقة المملكة التي يجلس فوق عرشها
وعن حقيقة الشارة والطيالس المزخرفة
وعن خبائث المعادن المزيفة
كيف تشكَّلت في يده المرتجفة
مبخرةً وصولجان .

* * *

الصمت في أزمنة الحيرة والخناجر
وجثة القصائد القديمة
يسحبها وراءه من مقعد لمقعد

من ضحكة لضحكة

من غضب مفتعل لصيحة تخفى وراءها ديمومة التآمر.

* * *

رأيته تحت تأرجحات الضوء والظلال

مطأطئا يلبس تحت جلده عباءة الطاووس

مستجديا في زمن الفراغ والطقوس

كرامة السخرة والإهانة

* * *

أنا احترفت في قصائدي قافية التأبين

ألطم خديَّ أمام هودج العرس الذي

يقام حينما تنتحر العروس . .

١٩٦٦

الشـــاهد والقضـــية

مجموعة من الرجال والنساء :

في الزمن المنكشف العورة والمختبئ الضمير

تصلبنا برودة السرير

تقتلنا طفاوةُ الرغوة في العصير

تغتالنا تحيةُ الصديقِ

أو ترجمنا حدائق الطريقِ

أو تميتُنا مرضعةٌ بثديها الأجير

نستبدل اتهامنا حتى تضيع بيننا الجثةُ والقضية

ويلبَس القاتل ما خلفه المقتول من ثياب

وأنت . . يا محترقا بحبك القاتل والمقتول

قدم لنا وقائع الشهادة

من قبل أن تفتقد اللسان أو تحملك الأكفان . .

الشاهد :
أتهم الصفاء والعكارة
والنَّهَرَ الذي يفيض كل صيف
بالعقم والخسارة .
أتهم الفاكهة التي تحملها الزروع
لأنها تملؤنا بالجوع .
أتهم الظلمة والأضواء
والصحف الغبية الأجيرة
والكتب التي تولد في مخادع الدعارة .
أتهم الأفلاك إذ تدور
والشمسُ لم تطلع على سقوفنا
والأرضُ ما تزال واقفة .
أتهم القضاةَ والقاعة إذ تغَصُّ بالشهود
أتهم البيارق المرفوعة

من قبل أن أقفز في فُوَّهة البركان

أتهم الإنسان

لأنه منسحق ممتلئ بالشحم والهوان

والضحك الجبان

ممتلئ ـ من كتب التبرير والكهانة ـ

بالرعب والخيانة

من قبل أن أموت

أتهم السكوت

أتهم السكوت

١٩٦٦

لــــو

لو أنني قابلتكم في البعث والنشور
مرتعشا ما بينكم في نُزُلِ الأعراف
وخجلا مما كتبتموه في دفاتر الشغاف
وضائعا بين المناكب القاسية الغليظة
إذا تزاحمت فوق السراط أو تضعضعت
من شهوة العبور
لعدت فوق الأرض
ممتلئا بالرفض والقصائد المحرمة
ممتلئا بالحب للمنازل الخاوية المهدمة . .

شكـــوك

صوت :

يا سفري الضرير

في منجم الكيمياء والتحول الأخير

تنحلُّ في دمي روابط الأشياء

وترقص العناصر المفككة

تنقلب الفروع في الجذور

والنار ترتمي ثمارُها في الكرمة المحترقة

والماء في دمي يميت بذرتي المنفلقة

يشتعل الهواء ثم يحبل الرماد

لكنني أنتظر التحول الأخير

كي تأخذ المناجم المعتمة المشتعلة

كراهتي للعالم المرير
فاقتلعي يا كيمياء الأرض ـ من دمي ـ احتقاري
للبشر الفانين في جواري
وللحياة بعدما تعكرت بالأوجه الممسوخة الملونة .

مجموعة من الرجال والنساء :

لا تبتئس يا أيها المقتولُ
فالشمس في مناسك الأفولْ
تموت كي تولد ـ في طقوسها ـ الفصولُ
لا تبتئس فالعود في الوصول .

صوت :
العوْدُ لعنتي المؤبدة
والريحُ خطوتي المقيدة .
يا لعنتي إذا وُلدتُ في شرائع الجسد

يا لعنتي إذا أسكرني تجدد الخليقة
فعذْت في طرائق الطفولة المبدَّدة
واغتسلتْ ذاكرتي .

مجموعة من الرجال والنساء :

ينغرس المقصُّ في قماشة الحياة
فالقطع من هنا والوصل من هناك

صوت :
أخاف أن أعود في عناصر الهيولى
ممزَّقا بالنار والرطوبة
والعقم والخصوبة
على سلالم الصعود والهبوط
ترعبني مدارج الخليط

مجموعة الرجال والنساء :

ماذا حصدت من سنابل الألم
حتى تموت هاربا؟!

صوت :
يؤلمني تَجَسُّدي
تخونني الدماء في يدي
تقتلني فضيحة اللغة
تصلبني شراسة احتقاري
للبشر الفانين في جواري
يضحكني الحديث صادقا وكاذبا .

مجموعة الرجال والنساء :
لعله انتظارك الطويل
للسنة الفادحة الكئيبة .

صوت :

وما أفاد العالم القديم ! !

لقد جرى من رحم السديم

محترقا منتظرًا ، تأكله تناقضاتُه

فاحترقت أطرافُه وانقلبا .

المســـافر

مجموعة من الرجال والنساء :

بعينيكَ يشتعل القمر الأخضرُ
وفي شفتيك تجوس الأغاني
وتحترق الكلمات الزواني
وأنفاسك المشْعَلاتُ الرحيمة
تشق محاريثُها اللهيبة قلبَ الهزيمة
لينبت فيها الدم المزهرُ
وفي قدميك عبير القرى والملوحة ،
في إبطيك تراب الدجى والنهار

وفي الشِّسْع من نعلك الغرينيِّ تواريخُ ثلج ونار
ونحن هنا ـ عند باب المدينة ـ نقرأ في كتب الإنتظار
ونغزل منها فضائحَنا
نتقلَّب أو نترقب بارقة من عطاء
ونرقب وجهك . . علَّك تأتي إذا الصيف جاء
فتمنحنا شارة الطمث ،
تمنح أعجازنا الخشبية روح الذكورة ،
تمنحنا من قصائدك اللهبية أو من
طقوس الكهانة بعض الشرار
ونحن هنا ـ عند باب المدينة ـ جئناك مستقبِلين
لتُسمِعَنا عن رحيلك في طرقات المجاعة ليلاً
وفي طرقات الخيانات طول النهار،
وعما لبست من الرقع السنوية والطيلسانات ،
عما تداوله الصهد والثلج من وجهك المتفجر
بالضحك المتألم والإكتئاب الفرِح

لتُسمعنا عن حكايا الدماء التي طرحتها

خيول الشرائع

فانسكبت تتلوى وترقص من ساحة لرصيف لباب . . .

المسافر:

أتيت في عباءة الكهولة

معلَّقا في حافر الرياح ضائعًا

أركض تحت قمر الطفولة

مجسَّدا في شجرٍ مشخَّصا في حائط مهدمٍ

وفي التجاور الذي يجمع ـ كي يفرق ـ الأشياء

أرقص في تداخل التخوم

أعبر من مملكة لمملكة . .

فى هذه المملكة ـ السطوح

حملت من هزائمي تمائمَ الفتوح :

الحبرَ في الدواة

والرعبَ في دوارق الغسلِ،
ولغةَ التخليط في الصلاة
والقلم الذي اقتطعته من قصب الجروح
أدقُّه في بيضة العالم أو في رحم الأشياء.

في هذه المملكة ـ الأشياء
تدَّرعُ الصخرةُ والمياه
تدرع الغيمة والرياح والزرقة في السماء
بالصمت والقشرة والحضور
ينفجر امتلاؤها عن بذرة الفراغ
وبانفلاتها الموحش في دوائر المصادفة..

دخلت عبر سبعة الأبواب
سمعت في حنجرة الجوامد
نزوعَها الأليمَ للتوالد
سمعت في الركاز

الصرخَة ـ الحصانَ والمهماز
وقفت عند بابها المصهور
مغتسلا بالنار
منتظرا أمارة العبور
فطلعت من جسدي رفيقتي وزوجتي الضاحكة العينين
قصيدةً . . وحملت سريرتي أجنتي
لكنني أقول ما رأيت
وما رأيته مختلط مسحور
مستتر كالشمس . .

بكــــائيــة

يا قمر الطفولة القديمة
هجرتَني ، حولتني صبية ناهدةً سقيمة
بالغنوة الباكية المبتهلة
للحب والتخاصر الراقص والأبناء
يطلع تحت النهد
عذابها الأبيض وانتظارها للشفة الرحيمة
واللغة العذراء .

يا قمر الطفولة
حولتني في الطرق المأهولة
شجيرة تثقلها الفصول بالعطاء

جعلتني ألبس ثوب الصقر
أطير في غمامة داكنة ، أنسج بالأمطار
أغنيتى ، أنتظر الفرار
من قفص الرياح نحو الشمس .

حولتني في البحر
عينين تنظران في العمائق المظلمة الرهيبة
وشفةً خرساء .

حولتني قنيصةً مطوية الجناح
تخونني الرياح
ترقد في الجراح
الشمسُ والكواكب المحتجبة
والغيمةُ المشتعلة
ومطرُ الأغنية الغريبة .

وهبتَني فجيعةَ الميلاد

من رحم الرماد

في أرضنا ـ المقبرةِ الباردة العروق .

يا قمر الطفولة

أبكيك في أغنيتى الضاحكة المخبولة

أبكيك في طينتنا المجبولة

من غرين الموت ومطر الحياة . .

أتـــرك لكــــم

أترك خُفَّيَّ على الرمالِ
خلاصةَ المقالِ
علامةً على حوار الكون والفساد
وشارةً من جوهرية الحب الذي يفصل
والكراهة التي توصل
والفجاءةِ التي تسوقها الدهشةُ بارتحالي .

أترك في قصيدة الطبيعة
طفولةً ما عشتها وقمرا منسحقا في فلك الفجيعة ،
يمامةً تسرقها من أضلعي سنابل الأحزان .

أترك في الرماد
شجيرة من غبطتي المحترقة
والشمس في سمائها الضيقة الوسيعة
أتركها وديعة معلقة
في مخلب الظلمة والسكوت .

أترك في العبور
خُفيَّ . . فوق ظلمة العصور
علامةً على فجاءة ارتحالي
ـ في الأرض ـ نحو النور . .

١٩٦٦

مرثية إنسان الشمس القديمة

كل شيء كان يُسْتنْضحُ مني
كانت الأرض جنينا في دمي لم يبلغ التاسع ،
والشمسُ وأقماري الخبيئة
كان في قلبي احتدامُ الشجرة
واختمارُ الطمي والشعر ـ الطلوع
كنت ـ مما يملأ القلب ـ أجوع
وأغني للمياه المسكرة
علها تطرحني زنبقةً في عروة الأرض التي تطلع مني

كنت من حبي ألفُّ الشرنقة
وبها كنت أصلي لأموت
قبل أن يحملني مني غرابُ العاصفة

وانسحاقي في مراسيم السكوت . .

* * *

كنتُ ممتدَّ العروق

نازفا أسبح في ليل السديم

كنتُ فيه روحَه الحرةَ والمحور والدائرةَ المشتعلة

والمدارَ الفوضويَّ المتحول

كنت أبني - بين ما أخفيه في القلب وبين العالم المقبل -

جسرا للتواصل

فأنا أفطر في الصبح بغابة

أتغدَّى بسحابة

أتسلى بحوار البرق والرعد اللذين استترا

تحت الربابة

ألبس الأفق على رأسيَ شالا وأدير العاصفة

خاتمًا في أصبعي ،

والبحرَ خفًّا ، والكتابة

معجمًا تصرخ فيه لغةُ الخلق وتنشقُّ وجوه الكائنات .

* * *

آه يا أرضَ النعاسِ الأبدي
أطفئتْ نارُك ، حطت في القلوب الحجرية
والأغاني الذهبية
بومةُ الملح التي تولد من بطن السكوت . .

* * *

ها أنا . . مختطَفٌ يحملني مني غراب العاصفة
مبعدًا إياي عما كان في «الكاؤوس» مني
فأنا في طرق الغربة أستجدي اللقيمات المخيفة
وأغني من عذابات التخارج :
آه يا مملكتي المبتعدة
أنت في القلب وبوابة قلبي موصدة
وأنا أهرب مني
عابرا في ظلمة الأعين والأوجه ،
مسجونًا بقلب الكائنات الفاسدة
أتسّلى بانتظار الكذب الأسود أن يفقس في عش الصحيفة

ميتًا في الليل محمولا على نعشِ النهار
داخلا في الريح أعراف العناصر
فأنا ملحُ البحار
وحديدُ السرج والمحراث، والطينةُ في أرض المجاعة
ونحاسٌ في سيوف الحرس المقبل من كل طريق
وأنا نار الحريق
ومدار القمر المعتم والشمس الكئيبة
وأنا الطبل الذي يُقرع في كل كتيبة
وأنا زهر الدم الطالعُ من كل قتيل . .

* * *

طفلتي . . يا طفلتي المشتعلة
جمِّعيني بعد أن بددني الليلُ الطويل
جمعيني من فم الأشياء والظلمةِ
صبي نارك الأولى بروحي العاشقة .
وهبيني ولدا
ترقص الطينة فيه بالمياه الخالقة . .

١٩٦٧

رقصـــة في آخـــر الأعيـــاد

«أغنية لمجموعة من الرجال والنساء»

ضُموا الأرحام
في امرأة واحدةٍ،
واحتفروا من قنوات النطفة نهرا يعبر كل تخوم الأرض
وتخلَّقْ في سنوات الصمت
يا طفل العالم والإنسان
وارضع من ثدي «الشسموفوريا» الطافح بالألوان
كلْ خبزَ فصول العالم،
وارقص في بندول السنة الكبرى،
واركض مكتملا مقطوع الجذر
ومجهول الأفياء

وتوحَّدْ تحت رياح الأرض الزانية البكماء
كن نخَّاسا عبدًا
ملكا مملوكًا
كرسيَّ العرش ومملكةً للغالب والمغلوب
وتقلبْ بين الجيف الحية حتى تولد من أحشائكَ
وازرع نفسك حتى تأكل من أثمارِكَ
وانزع عنك قميصَ الإرثِ
ودَوِّخْ نفسك بين عناصرك المخضرة والجدباء
وتقدمْ في أعراس الحجر وحيدا
واغسل عينك من رمل البرية
وتكلمْ لغة واحدة دموية
يتقلَّب بين مقاطعها التكوينُ
وتُخرس تحت حوافرها لهجاتُ الأرض
وتدبُّ خلال خوافي أحرفها أسماءٌ أخرى للأشياء
فيموت العالمُ ، يولد ، يرقص في شفتيك . .

١٩٦٧

كتاب المنفى والمدينة
قصيدة وقراءة
القصيدة ١٩٦٨
القراءة ١٩٧٥

ـ ١ ـ

الأرض ـ كالجثة بعد الدفن ـ ممدودة
أرختْ يدا صفرًا ووجها فارغا وجديلةً
بالرعب معقودة
واستسلمتْ للنوم
في جحر ضبٍّ مليءٍ بالنخل والأشجار
وتحجرت واستسلمت للنار
فارتدت النار عنها . .
لم تطهِّرْ وجهها الممسوخ
واستسلمت في النهر للتيار
لا الماءُ أغرق ما في الصدر من أسرار
ولا ارتمى احمرار الطمي في العينين
من بعد ما اسودَّتا بالرعب أو بالعار
وبعدما ما ابيضَّتا باليأس والإنتظار.

وتكسرت جسرا فجسرًا . . وارتمت في المحيط
لا الملحُ جفَّف ما في ثديها المقطوع
من ذكريات الشفاه
ولاتراقصت الأسماك في الرحمِ
ولاتفجر موج البحر في القدمِ
بشهوة الرقص تحت النهار
حتى تعيد انفتاح الشفاه والعينين
في الرعد والأمطار.

وجئتها . . بين زفير العرس والإحتضار:
وضعتُ كفيَّ على بطنها
فصار حبي لها تعويذةَ الإختمار
وصار سخطي عليها سفينة مشقوقةً
ما بين زيت ونار

وصار صوتي ابتهالاً غاضبا وانتظارًا
لسنبلات الجروح
وصار حبي نزيفا وحربةً تشق لحم الهزيمة
تحفر في قلب التخوم القديمة
قبرًا، تشق بطن الرياح . .

وضعتُ كفيَّ على ثديها
فناولتْنى خريطة أبدأ منها الفتوح
وناولتني بيرقا للموت (أو للقيامة؟)
قبلتها قبلة للسر، قبلتها للتعارف
مدت يديها . .
وصارت ما بين كفيَّ قوسا عصيَّةً مشدودة . .

ـ٢ـ

الأرض مملكتي الضائعة
الأرض مملكتي المستعادة
الأرض ضلة روحي وعصيانها
الأرض سجادة للعبادة .

الأرض مملكتي . . كنت في
طينة الأمر بين المياه وبين
الظلام الإلهي مضطجعا
أَتَنَظَّر صلصلة الجرْس ـ
رشْحَ الجبين
وبين الرؤى والنعاسِ
تخايلنى امرأة وتكاشفنى
في فضاء التذكر
كان العُقابُ الإلهيُّ
يرفع أجنحة الضوء من
آخر الغمر شيئا فشيئا
فأغتصب الماء والطين . .
وامرأتي تتكشف تحت

فضاء التذكر . .

وقتُ النبوة يفتح أوراقَه ، يستدير

على أول الليل والخلق يصعد تحت

جناح العُقاب الإلهي . .

تأمرني امرأتي بالزيارة . . والسيد

المستقر على نخلة الشمس يفتح

كفيه لي : يا هلا . .

الأرض مملكتي والمفاتيح مكتوبةٌ

(كنت بين الرؤى والنعاس)

يؤرخ لي شجرٌ وغيومٌ هي الخطواتُ

المليئةُ بالماء ، مملكتي الأرضُ

سجادةٌ وخيول من الحلم ترعى . .

ـ٣ـ

أراكَ يا نسرا من اللهبِ
تحوم فوق الرأس
تشير لي ، والأرض غاباتٌ
وأبنية من الحطبِ
والنارُ بين الضلوع . .

ـ ٤ ـ

فلتقفي . . يا ساعةً رملية
حتى أرى آخر الأرض الشمالية
حتى أجوس خلال الشرق والغرب
والأرض الجنوبية
ولتقفي . . حتى تصير الثواني

فراشةً حية

حتى إذا ما الموت لاقاني

كوني لجسميَ تابوتا وقبريَّة . .

ـ ٥ ـ

لا الأرضُ أرضي ولا الأيامُ أيامي

يا جسميَ الظامي

اشربْ دماءك واحْفُرْ قبرك الدامي

في الريح ، واجعل ظلك الممدود

طريدةً ، والشعر أشراكًا وأنشوطة

وارحل لتفتح بابك الموعود

واحمل حصاد الدهر

بعثره وابدأ من ظلام الغمر

تكويرةَ الأرض . . خذها طينةً من وجهك الأسمر

وابدأ تقاويمَها من سيفك الأخضر . .

يا جسميَ الظامي
كن غيمةً . . واسقط على أرضي . .

-٦-

كل البلاد الغريبة
لما تزل في انتظاري
في الزيت تقدح ناري
وفي الليالي الرهيبة
عيناي للطير عش
وللسفين منارة
وللعذارى قوارير عطرٍ
وللفطيم فطيرة
ولليتامى أب غائبٌ ،
وللقلوب الكسيرة
تواصلاتٌ ، وشمس

البلاد البعيدة تفتح أبراجها ،
وترش شوارعَها عطشا موسمياً
وتلبس جدرانُها موعدا آجلاً
يتفتَّح تحت الأزاميل والنقش
نمنمةً ورسوما ملونة بدم
الأُضحيات ،
السواقي تشد ربابتَها وترا وترًا ،
يتكسَّر وجهي ولائمَ في الحلم . .
رائحتي لليتامي أبٌ غائب يتأهب
فوق الخيول العصيَّة
يحمل من كل شيء سلالاً

مخبوءةٌ لا تراها مثقَّلةً بالهدايا وألبسة العيد ،
إلا العيون الضريرة في خطواتي فطائر محشوةٌ بزواج
الأميرات والليل والكائنات الأليفة

كل البلاد الغريبة كل البلاد البعيدة لما تزل
لما تزل في انتظاري في انتظاري
والأرض مفتاحُ داري . . أنا وهج النار، سر الحرائق في
زيتها . . كلما بدَّل الليلُ موسمه
وارْتَغَتْ في الأباريق دمدمة
العطش الحجريِّ وصلصل
خوفُ الينابيع تحت خيول
البرابرة . . انكسرتْ طينةُ الذاكرة
وفتَّحْتُ فيها النوافذ للنار
والغيم كسرَّت وُجهي مرايا
نعاسٍ على أول الحلمِ ،
فانفتح النهرُ،
وجهي الجزيرةُ في النهر، يلتمُّ

من حولها الطمي ، تسكن في
عشبها أممٌ من شظايا المحار
المفضَّضِ والسمك المتوهجِ
بالزرقة ـ الخضرة ـ الأعين الذهبيةِ
والطحلبُ المتكسِّرُ في خطوة النهر
دار تدوِّم في القاع
أكتب ألويةً ومفاتيحَ للأرض
والأرضُ لما تزل في انتظاري

ـ ٧ ـ

هذا أنا . .

أبدأ رسم الطقوس

دمي على جبهتي ،

عيناي رمح مغمَّسٌ في الشموس

وفي ضلوعي جعبة للسهام

والأرض من تحتي حصانٌ شَموس

والبرق خبزٌ شعائريٌّ ،

والأفق طيرُ الغمام

وسكتي حُلُمٌ طائف بالرءوس

فابدأ ـ معي ـ يا أيها الشعب ـ رسم الطقوس . .

-٨-

أعرف أن الأرض والمملكة
التي سوف تجيء
لما تزل في شجر الظلام
تفاحة معلقة .
أعرف أنها بوابة مؤصدة
بعيدة
لكنني أشمها في برعم
أذوقها في المطر البريء
أسمعها تضحك في اصطدام
السيف بالهواء
أنظرها تطلق من أبراجها
المديدة
عصفورة الصرخة
والقصيدة الممزّقة

الليل مركبة الأبنوس
على اليمِّ ،
أشرعة النخل منقوشةٌ
بمناديل من ظُلل البرقِ ،
لي امرأةٌ وسريرُ المسافة
بين الينابيعِ ،
لي امرأة فوق أطباقها ثمر يتكسر:
تفاحةُ العهد والإنكشافِ
الفجائيّ ، خبزُ الشعير المغمس
بالصحو
لي امرأة . .
زمني دَرَجٌ تتهادى
عليه إلى أول النهر،
قلبي مخاضتُها المطمئنةُ
عشبًا وحصباءَ بين الفراتين
والنيل

وتستغيث . .

آه يا مدينتي البعيدة

أنا أشير بالسيف إليك . .

فاصمدي وانتظري

الفتح قادم إليك في خميسة . .

فتوجي رجاله بالمطر . .

والليل مركبة الأبنوس على اليم

أهبط

ها أنت مثقلة

بين ثوبيك قطعانك المستحمة

بالزغب المتوهج ، بيت الحياة

وعشاقك ازدحموا تحت جلدي

ومثقلة أنت :

زنتك القمر الذهبي ،

شظايا العروش ألملمها من

نقوش الخرائب ،

وكر العُقاب الإلهي أنقشه بين

نهديك . .

أهبط . .

في ضفتين من الحلم ينشقُّ لي

أفق وسهيلٌ يطلُّ ويترك

شارته في المياه العميقة . .

رجرجة الماء مكتوبةٌ

والمياه القراءةُ
دائرة الرمل تكتب فيها الرياحُ
نبوءتها وتخط طوالعها :
زمن ملكيٌّ يجيء
وآخر يخضرُّ من مائه
وتد الخيمة ،
الرمل فاتحةٌ للقراءة .
والصحو يفتح قبته لسهيلٍ ،
القبيلةُ تشعل نيرانها ، الوحش
ملتمعُ الحدقات ، وهمهمُة تتقاطر،
أرغفة العهد بينكمو تتكسر.
أبراجك انعقدت والقباب تفتحن
صيف من العشب أخضر
ماء الينابيع أخضر،
أشهد أسماء شعب عصيٍّ الولادة
تطلع من رعدة الماء ،

فجرُ الشوارع والمدن البدوية يفتح

ساحاته، امرأتي في الهوادج

مرفوعةٌ والصعاليك من أصدقائي

يقيمون طقس القصيدة والإرث . .

فانتظري يتها المدن البدوية

وانفتحي للصعاليك والشمس

هذي هي الشمس مخبوءة . .

زمني أفق يتقوس بين الفراتين

والنيل . .

- ٩ -

أحلم في النهار:

الشمس تاج باحث

عن قامة ورأس

أسمع في الأحجار

توجعا وغنوة انتظار. .

لا تنزلي يا شمس

رأسي طري مائع

والسيف ما يزال

حديدةً أشحذها باليأس

والأرض ما تزال

عجينة تنتظر التكوير

والحرارة. .

الشمس تاج،

والسما مملكة مرسومة

فوق مرايا الأرض ما بين

المحيطين. . السما عرش

مضيء،

ورق الإرث، عصا الحكم،

وشعبي عدد الذرّ ورمل الصحراء

كرة الأفق سريرٌ ليلةَ الحلم،

وشعبي أمة مكتوبة ما بين ماءين

استرحت الآن. . هذا

الحلم يأتي:

فأنا أسمع إيقاع دمي،

الأرضُ قباب امرأة

والحلم يأتي:

رعدة خالقة تجرف أعضائي

: ينابيع دم أم ظمأ يطلع في

النخل ـ أنا ـ أم طينةُ الرعد

وحلمُ الطيران؟

الشمس تاج والسما مكتوبة

مملكةً فى الرمل أو فى الحجر

يا ناقَة رائمَة بين نياق المطر

لا تهدئي . . وانتظري

لا تنزلى يا شمس

رأسي طري مائع . . والأرض ينبوع

دم بين الفضا والشجر

والشمس تاج باحث عن قامة ورأس

- ١٠ -

رأسي على مخدة الليل ،
وجسدي
منسكب عبر شقوق الأرض
والظلام
أدخل في مملكة الأحلام
أصبح طينة معجونة من كل
ما في الأرض من هيولى
أصبح راعيا أسوق في الرياح
ناقة الغمام
أغنيتي : توافقات
الرمل والأمطار
أبنيك يا مدائني
من شاطئ لشاطئ :

تلبس الشمس قميص الدم ،
في ركبتها جرح بعرض الريح
والأفقُ ينابيع دم مفتوحة
للطير والنخل . .
سلامٌ هي حتى مشرق النوم . .
سلام/

ونساء النهر يطلعن :
خلاخيل من العشب
استدارات من الفضة والطمي
اشتهاء بللته رغوة الماء
تصايحن على الطير، وبالشيلان
يمسحن زجاج الأفق ،

أرسم وجهك الممتد
بالغلال
أرسم بالزبيب ساحة
واسعة،
أرسم بالزيتون
منارة، أرسم بالفروع
المثمرة
جامعة وقنطرة
أجعل من وجوهك
المعقودة
أهلّة تحيط بالشط كأنها
السوار.
هذا نهار الحلم أم غيبوبة
النهار؟!
رأيت في السماء رقعة
مثقوبة ممزقة
تهبط من مجهولها الأطيار

يبكين بكاء طازج الدفء
سلام هي حتى مشرق
النوم..
سلام/

ضمت الحقول ركبتيها
ونامت الثعابين
سلامٌ ظلامي يتكوم قشاً
ناعما وزغبا
والثيران أغفت واقفة
تتكسر أنجم الليل في
حدقاتها الفسفورية الغائبة
سلام قناع من ليل رحيم

رأيتها تلقط ما وضعت من
علائم الرسوم
رأيتها تحمل في الحواصل
أهلة الخرائط التي نقشتها في
ورق الأحلام
وتبتني أعشاشها في
شجر الرياح .

أحلم يا بوتقة الإنسان والطبيعة
أحلم أن تورق في
القصائد المزدهرة
شمس جديدة
وغيمة وقنطرة . .

١٩٦٨

نام النصف الهالكُ ولم
يستيقظ النصف الحي
وخلت الأرض من كل دابة
فإذا قُضيت صلاةُ العتمة
وأقبلت ملائكة الحلم
وأشرق النوم بنور
شمسه الخضراء
وآيته المبصرة
فبرحمةٍ منه خلعت أعضاءَ
النهارِ وفتحت في النصف
الهالك
نافذةً والتفتْت بالنصف
الحيِّ وقامت قيامة الرؤية :
ترجَّلت عن رسوم الشراشف
ورائحة المخدات
فهل تركت الأغطية على وجهي

رسومها الشجرية البارزة؟!

وجهي ورق يتطاير وثمار

يسَّاقطن وأفرع تنمو. .

مُهْرةٌ تطلع من بيت أبي:

تطوى المسافاتُ لها،

الفضةُ والبرق على حافرها ضَوّاً

غرناطة والأرضَ وراء النهر،

والزئبقُ والكحل بعينيها مرايا

اشتعلتْ بالطلل الواسع،

تعلو قامتي في جسد الحلم،

أضيء، الشجر الطالع في وجهيَ

معقود، ودمع طازج الخضرة

مكتوبٌ على وجهي ينابيع وأقواساً

من الماء الهلاليِّ.

وتعلو قامتي في جسد الحلم:

سهيلٌ وردة خافقةٌ في عروة القلب ،

ينابيع دم معتمةٌ تصحو،

خيول طلعت من «جزء عمَّ» ،

اتسعت دائرةُ الأرض . .

سلام هي حتى مطلع الفجر. .

سلام/

ركبتي مقصورةٌ في طرف الأفق

ووجهي ازدحمتْ فيه الكتاباتُ

البروقُ الورق الأخضر والماء

(الحروفْ / أمة من الأمم ، مخاطَبون ومكلَّفون)

الطيور انفجرت في قبة الريح كما

تنفجر البئر، تذكرتُ ،

هو الأفق الأريكة/

جسدي مقصورةٌ ، أملك ملْكًا لم

يكن لي ليس للغير،

تذكرت ومن تحتيَ نهر الصور الحية
يجري والينابيعُ تواشجْن كما أقضي . .

تذكرت فجاءت كرةُ الأرض
وجاءتني السموات وأبدلن
ثيابًا بثياب .

المزج بين خلائق الذاكرة وزواج
ما ليس ذكرا بالأنثى وما ليس أنثى
بالذكر
وفرحُ القوى الأرضية وهبني
قوَةَ الاستحضار بمدد من صور
الذاكرة المهشَّمة
فاستحضرْتُ من الأطعمة والصور
والسماع الطيب على ما أشتهي
وطال الوقوفُ في مقام «كن»

وامتلأ الفرح بالأسئلة الغضة

وتهدل شجر الوجه بالهواجس الطازجة

وبراعمِ الحيرةِ المتنبهة

فعرفت أني على المعراج أتمشّى في

مقصورة اليقين الأوحد

واتسعت دائرة الأرض ،

السموات سراويل يتفتقن عن

خاصرة النهر الحي

نافذة تحت سراويل البحر مفتوحةٌ ،

والإشراقيون الهرامسة والعرفاءُ

يقيمون وليمةَ الجدل النوريِّ ،

السهرورديُّ يتنفس ملءَ الفضاء

ويقسم الخبز والسمك النيلي المفضَّضَ

ويأكل ملء الفوضى ويشرب ملء

الفيض الذي لا ينقطع .

الهرامسة ينسجون بُرْدةَ السماعِ

والطرب ويفرشونها للقبيلة النبيلة
والوحش والطير مُسْتراحًا وكنفًا
وتوطئةً لتعارف الخلق ومصاهرة
الخلائق مثنى وثلاثَ ورباعَ و إلى
آخر ما تعيه الذاكرة من الأعداد

نساء النهر يكشفن عن الساق
النحاسية والطمي وعشبِ
الخليقة الطالعة من كل نوم .
سلام هي حتى مطلع الفجر. . سلام/
مهرة تصهل في بيت أبي ، بيتُ أبي
مرتحل في جسد الحلم ،
الفراتان كتاب من دم يصعد
والنيل كتاب
وسراويل دم منتشرٍ يخلعها البحر
فتلبس الصحراوات وتزَّيَّن الأرض

الواسعة وشظايا الخرائب ببهاء
الصاعقة وخضرة النار
والشمس تُولج أطرافَ الليل في
قفّازات الأرجوان وجوارب الذهب
المسبوكِ وغير المسبوك
صاعدةٌ هي ومليئة
هابطٌ هو إلى همهمة الخشاش
وتلاصق الدوبيات وزواحف
السعي
ضاقت الخطوة .

في مرقعة النصف النهاريِّ
التفتُّ ، انتشرتْ رائحة النوم الظلامي
وقاءتْ فُرُش الصوف ، ارتمتْ
ألحفةُ القطن المندّاةُ . .

سلامٌ عنكبوتٌ من دمٍ
خَثَّرة أن التقاطيع تشابهن . .

سلام/

جسدٌ يهجره الماءُ

وماءٌ هجرتْه الذاكرة .

١٩٧٥

رســــوم على قشــــرة الليل

خُطـــواتٌ مقتَلَعـــة

«أغنيـات متجـول»

- ١ -

من الذي يركض في البرِّيَّة
في جيْبه فطيرةُ الرمَلِ وفي لسانه أغنيةٌ منسية
يكتب في الهواء يومياته الأليفة
يكتب عن مغامراته في الطرق السفلية
ويستعيد ما حفَّرَه الزمانُ في سجّادة الخليفة !!

من الذي يركض في البرية
يصير مرةً ضبًا ومرةً خرافة
يصير هامةً تصرخ أو مجاهدًا يرفع بيْرَق العرافة
أو رقصةً في ساعة مخيفة
بْندُولها يقتلُ إذ يذهب في الفضاء أو يبْعثُ إذ يجيء !!

من الذي يركض في البرية

منسلخًا من لحمِه النيِّئ هاربًا من دمه المخْتَمِرِ المحمومْ
مستقبلاً في وجهه حوافرَ النجوم
منسربًا وغائصًا في الأرض،
يبدأ الرحيل
يدخل منجم الأرض على حصان المعدن المنطفئ المصهور
يصعد أو يهبط في عروقها
يأخذ وجْهةَ المركز أو يدورُ في مياهها الجوْفية!!

* * *

قابلْتُه على وجوه البِرَكِ الضحلةِ والعميقة
سمعتُه يكذب في الباطل أو يومئ في بوارق الحقيقة
رأيتُه في البئر ناظرًا محدِّقًا من خلل الرغْوة والمياه
عَرَّفني رموزَه في كتب التجْديفِ والصلاة
والتمعتْ كنوزُه في الزَّبَد المعتمِ
طارت الطيورُ وابْتنت أعشاشَها في الجزر
الغريقة.

أنا هنا علامة

وشارةٌ منه على طرائق الخيْبة والسلامة
أنتظرُ القيامة
وعوْدةَ الفروع في الجذور

أنا هنا سُمْرَتُه في الصيف واصفرارُه في ميِّت الفصول
ورقْصُه في مطر الأعماق وانسكابُه في السُّدُمِ المحروقة
وصوتُه الذي يصرخ في الأحلامِ:
«من يمنحني جمجمتي المسروقة!!»

أنا ظلالُه التي تجسَّدَتْ
أخلاطُه التي توحَّدَتْ
تماسكاتُه التي تبدَّدَتْ
هو الفِرارُ في بواطن الأشياءِ
وأنا فرارُه المرئيُّ في السطوح

* * *

في الليل . . لوْ قابلَني
فسوف أدعوه إلى غُربتنا السِّريَّة
أطلبُ أن نستبدلَ الخرقةَ والطريقة
أطلب أن يعطيَني وجهتَه . . أن يَطْعَمَ الغربةَ في السطوح .

* * *

في الليل . . حينما تمتزجُ الشعائر
شَعيرَةً واحدةً للموت والعماد
شعيرةً واحدةً للجوع والحصاد
شعيرةً واحدةً للرعب والأُلفة ، للسُّكْر وللعبادة
فسوف يكتسي هيكليَ العظميُّ من مناسج السَّديمِ
أو تُفْرَش لي طفولتي سجّادة
أو أبدأ الرقص على أسرَّة الولادة . .

١٩٦٦/١١/١١

- ٢ -

أمي وَلَدتْني فوق سرير الجوع
فشربتُ الصدأ السائلَ من فولاذ العالم
ورقصتُ على إيقاع الموت
وأكلتُ الأرغفة الحجريَّة
فاخترقتْ صدري الحربةُ في أعراس الصمت .

* * *

أخذتْني فوق محفَّتها مركبةُ القمر الأعمى والظّلماء
فدخلتُ فصولَ الرعب
ورجعتُ إليكم ذاتَ مساء
محترقَ الصدر . فقد زوَّجني العالمُ طفلتَه الجِنيَّة .

* * *

أدخَلني عرسُ الأرض حدائقَه السفليّة
وأتيتُ إليكم ملتهبَ العينين

أسألكم :

كيف ارتدَّتْ أمي ـ تحت كروم الجوع ـ

فتاة بكرًا وامرأتي عذراء ! !

مارس : ١٩٦٦

ـ ٣ ـ

الشمسُ تشرب البحرَ لكي تموتْ
والأرضُ ـ في فجيعة العالم ـ تأكل البيوت
والشاعرُ الكاهنُ والقصيدةُ العلامة
شرنقةٌ تحبل بالقيامة .

* * *

الليل والدَّواةُ والسيوف
خرافةٌ تطوف
باليأس والقتامة
والرعبِ في دفاتر السكوت

* * *

الصمتُ في جمجمتي سفينةٌ ، وحوتْ
مسافرٌ في طرق الغرابة
والعالمُ الذبابة

يُلْحفُ في الأسئلة التي تموت في فواتح الإجابة .

* * *

الصمتُ في الرّبابة

والعالمُ المسجون في خزائن التجار

علامةٌ داميةٌ ترقص في قوائم الأسعار. .

١٦/٩/ ١٩٦٦

ـ ٤ ـ

في هذه الحوائط التي تكبرُ في الميدان
في هذه القارورة التي يملؤها تشابُك الألوان
في وَرَق الإعلان
وورم المفاصل الراكعةِ المهيضة
في هذه التمائم البغيضة
أراك يا قريتنا الجائعة المريضة
جمجمةً تنبتُ في حدائق السلِّ، ربابةً تسكنُها الغربان .

* * *

عصيرُكِ المختمرُ الذي يُسرق عند الفجر
أشمّه من هذه القارورة التي تفتحها المومسُ في الهواء
وجرحُك الذي ينزف بعد العصر
أراه في السحائب التي تطلقها مواقدُ الشواء
والقبح في ملامحي أراه

سنابلاً من الدم المغتصَب الذي يلمعُ في الشفاه .

الميتُ المجهولُ في شوارعِ المساء
من قريتي يجيء كل يوم
يترك جلدَه الممتدَّ في الأسفلت ،
والصِّدارَ في أشرطة الحراس
والقمرُ المغتربُ المضاء
مرثيةٌ صامتةٌ تقرؤها مداخنُ السماء
والشاعرُ الذي يكذب جاء
كي يشرب الزبيب حينما ينتصفُ الليلُ ويثمر الكذب .

٩/ ٥/ ١٩٦٧

ـ ٥ ـ

أضْرِبُ في الأسْتار

مطوِّحًا بالسيف جهةَ «اليمين واليسار»

* * *

كان الممثلون في الممر

كانت غنائمُ الليلة في الدّهليز

من ضحك المهرجين

وهوَس الدماءِ في عروق البطل المستسلم الحزين

كانتْ مدينةُ المطر

تغسل عارَها المنكشفَ الدفين

وتمنح الحفاةَ والعراة

ـ لقاءَ ما يبعثرون من دمٍ ـ صلصلةَ الكنوز

كانت شرائطُ الفرْو المخطَّطة

علامةً سريةً للمومس العجوز.

كانت علامةُ المضاجعات في الظلام

الرعبَ والتلوُّنَ الخائنَ في الوجوه

وكانت الزجاجةُ المعتقة

والقفلُ والمفتاح والبكارةُ الممزقة

تحبل بالرموز.

* * *

الرجل الذي أراه يعبر الآن من الرصيف للرصيف

رأيتُه في أول الصباح

مجنْدلاً في دمه يصرخ في الرياح

في معصميْه كانت العلامةُ الداميةُ الرهيبة

تسكب من جروحها غِرْينهَا المباح

في الظهر كان واقفا يراقص الرماح

في العصر كان قاعدا معربدًا في زخرف العباءة

يمتح من عصارة القمامة

مدائحَ الزِّنا وولدِ السِّفاح

في الليل كان طافيًا في الطرق المضاءة

مطالبًا بما يبيعه من عرق الأفخاذ أو ينتظر العطية .

* * *

والرجل الذي رأيتُه ممزقًا أمام أعين المشاهدين

مندمجًا في فوضويّة المجاهدِ الحزين

يحفُر بالأشعار مكمنا للجذرِ

أو حنجرةً للشعرِ

أو منطلقًا للماء في الصلابة

رأيتُه ـ حين تقاطع الصمت مع المساء ـ

معلقًا في وتر الرّبابة

يعرض وجهه للبيع والشراء

* * *

أضربُ في الأستار

مطَوِّحا بالسيف جهة «اليمين واليسار» . .

١٩٦٧/٤/٢٠

ـ ٦ ـ

تحت الرمالْ
ما زلتُ أسمع هذه الريحَ القديمةَ ،
والتلالْ
تخضرُّ من جوعي وتكبر ثم تكبر،
والهلال
كالسُّنبُكِ الدامي . . يطير
متآكلاً ومقوّسا لا يستدير
والشمسُ تصغرُ في تهاويها .
يحطُّ على الغصون
ثمرٌ تمزِّقه المواسمُ والمطر. .

ـ ٧ ـ

فلْتغْسلي كفيْكِ في البراءة
ولتحْملي خنجَرك المرهفَ بين النهد والنطاق
ولترقصي في الحسْرة المرتحلة
بين الوجوه السُّمْرِ والعيون . .

أحلم يا مدينتي الفارغةَ العينين
بالفارس الذي تنشقُّ عنه الزَّحمةُ المغلَّلة
يرقص رقصةَ الموت ورقصة الزفاف
يُخرِج من جيوبه البيارق
فبيرقٌ تصبغه الدماء
وبيرق تنْبت في أطرافه السنبلةُ الخضراء
وبيرق يثمر فيه البرق والرعد ويسقط المطر.

أحلم يا مقطوعة النهدين

بالشعب إذ ينفخ في أبواقه المنتظره

فتشرعَ الأرضُ رماحَها في الزَّهَرَه

وتزحف النار التي تلبس ثوبَ المطره

ويصبح المنجل خنجرًا، وتصبح الرياح قنطره . .

* * *

فلتحملي آلامي

يا غنوة الربوع والسنابل الدوامي

ولتحملي عظامي

هراوةً أو حربةً أو خشبة

ولتجعلي خطايَ في الظلام

مسرجةً وعتبة

وعلّقي في الرقبة

إيقاعك الذي يحرسني من لقمة الخيانة . .

١٩٦٨/٥/٢٨

-٨-

«إلى تمثال إخناتون بالمتحف المصري»

الشاعرُ النائمُ في التابوت
أطعمنا السنابلَ الأخيرة
لوَّح بالشمس على وجوهنا من قبل أن نُولد أو نموت
أسمَعنا الأشعارَ وابتنى مدائن الظهيرة
واندلعتْ على سريره قارورةُ الحنوط
والتفَّ في منتصف الليل بما تنسجه الظلمة والسكوت
وغادرَ الأرض . . مطاردًا بالمومس الأميرة
معلقًا على مشانق القصائد الأجيرة
مكفّنًا في صرخات البوم واللوتس والبشنين .

* * *

الشاعرُ الذي خَبَّأَ قلبَه في قصب الأنهارِ

- أو في لبن الأشجارِ

أو في القمر المجنح القَديمْ

يرقد ـ ما يزال ـ في أسرةً السديم

منتظرًا ـ في الموت ـ ما يزال

ممددًا في حجريَّة الصخور، نائما في عطش الرمال

معذبًا في عرق الزُرّاع ، باكيًا في عصب الموال

مقيدًا في صالة المتحف شاكيًا ،

منفقئ العينين رافضا أن يستريح أو يريح

أن يعيش أو يموت . .

ـ ٩ ـ

رأيتُني مفتّتًا في وَضَمِ القصّاب
مجزءا في الورق الأزرق تائهًا في طرق التراب
مهاجرًا أدخل كل باب
منْسفحًا مدوَّخا أنتظر الفرار
تكوُّرًا في النهدِ
أو صلابةً في الزند
أو سخاءَ نطفةٍ تُضرم نارَها في رحم اليبابْ

* * *

رأيتُني في القمر الذي يطلع من أغلفة المصاحف الكوفيّة
مكرَّرًا في البقع الباهتة التى ترقص في
زخارف المنمنات والمقرْنصات والقباب
رأيتُني منكسرَ الحراب
أطارد الغزالةَ التى أطلقها الرسّامُ في السجادة الألفية . .

منسحقًا على قصائد العرار والأراك . .

* * *

رأيتُني ملتحماً بالأرض في عراك

ملتحماً بالشمس في عراك

ملتحماً بالقمر الثلجيِّ في عراك

فمن يخلِّص الأشياءَ من دمي المشاغبِ الذي

تصعلكتْ خيوطه في طرق الهلاك

أو يقطع الحبل الذي تشدُّه في عنقي أصابعُ الأشياء ! !

- ١٠ -

حينما تدخل بابَ القمر الأسود فانظرْ في
الدهاليز وحَدِّقْ في الزوايا
وادَّرِعْ - من رعبك المنكتم الصوت - بما
تلبَّس من إرث الوصايا
وابتعدْ . . فالعالم اللص سيُلقي لكَ
أشْراكَ الصداقات وأفخاخَ المرايا
لا تحدِّثْ أحدًا . . فالموتُ يأتيك برجْع الكلمات
لا تحدِّقْ في مراياك التى حدَّبَها جوعُكَ
أو قعَّرها رعبُكَ ،
لا تهربْ على مسْتَكْذَبِ الفعل ومذْخولِ النوايا . .

- ١١ -

تَحَدَّثْ معي يا رفيق السفر

وضَيِّعْ بحبل الأحاديث ما اعتاد قلبي من الحزنِ ،

حَوِّل دمي عن خطى الريح في العشب

والشمس ،

حوِّلْه عما به من فرار

وراءَ اللظى واخضرار الشجر

وأنقذْ دمي من ضجيج التداخل بين الرؤى

(لماذا خلتْ أرضُنا من مكان لنا

لماذا خلا العالمُ الرحب من موطئٍ للقدم!!)

أنا أعرف الأرضَ . . من خلف هذا الجدار

سأركض في الكوكب المظلم

أغني بأشعاريَ الظامئة

وأشربُ من كأسه الطافحة
بما في البروق الرهيبة مني ومن غضبي وجنوني الكظيم . .

(متى تشرق الشمسُ فوق المدينة
لتبتلَّ أطلالُها بالندى والسكينة
ويهتزَّ فوق المنارات عصفورُها الملتهب ! !)

* * *

لقد كنتُ في أول العمر طفلاً يحب السواقي
أغني فتستدفئُ الشمس في أغنيات العروق
وعيناي ما كانتا غير صقريْن لا يشبعان
وأصغي إلى كركرات العصافير . .
لكن جِنيَّةَ الأرض صَبّتْ بسمعي مُذابَ
الرصاص
وقادتْ إلى مخدع الطمي والعشب روحي
وألقتْ عن الصدرِ فَضْلَ الوشاحِ
ففَرَّتْ إلى الليل أطيارُ قلبي الذبيحِ

تحسستُها . . فاستحالت بكفيَّ طيناً به من
خطاها بقايا اخضرار
وأوغلتُ في العمر حتى استحال الفرارْ . .

* * *

أرى قطةَ الليل تنسلُّ في الشارع الأرقط
ويستوْلد الجوعُ في ناظريْها التهاويلَ
تنسلُّ في سلم الظلمةِ الصاعدِ الهابطِ
وتنقضُّ . . تندسُّ بين الحنايا
وتأكل من أضلعي البلبلَ النائما
وتحسو الدمَ المعتما . .

* * *

بوجهيَ ـ قد مَسَّحَ الليلُ أظفارَه ثم أقْعى بركن قريب
أراني الردى وهو يرقص في الأعين المطفأة
ويلتفّ في حُرقة الصمت فوق الوجوه
فأغفيْتُ أحلم أن يتخلق في الشعر وجه القمر . .

ـ ١٢ ـ

أنا مسافرٌ في هذه السفينة التى تُبحر في
شوارع النهار
تسترني أشرعةُ الغبار
تشطرني شرائحُ الزجاج والمصابحُ المعلّقة
تنْسخني ، تجعلني عجينةً من الملامح الملفقة .

* * *

مسافرٌ إليكِ يا يمامةَ الغربة والشباب
مرتحلٌ إليك في مساومات الصمت والعذاب
من جسدي يسّاقَطُ الشعرُ وتهرَمُ العروق
في جسدي تعشش البروق
تشقّني ـ من شهوةٍ للمطرِ ـ الشقوق . .

* * *

مسافرٌ إليكِ يا يمامة
في الحسرة المقيمة
واللغة القديمة
تحملني نقّالة الغروب والشروق .

(لم تنغلقْ بوّابةُ المدائن المحرَّمة
لم تنغلقْ دفاترُ الصمت ولا دفاترُ الكلام
واختلطتْ شعائرُ الصحوة بالمنام
وانفتحتْ في طرق الزحام
طرائق الهجرة والإقامة . .)

مسافرٌ إليكِ يا يمامة
قصائدي من شجرِ الموت وشجر القيامة
جذورُها في الجدث القديمِ
واخضرارُها تناسخ السديم
وانفتاحُها في طرق الظلام شفرةٌ تشطرني

نصفين

حنجرتي تصمت كي تبين .

* * *

قصيدتي التى جمعتُها من معجم الزحمة والفراغ

ـ في هذه المدينة المرصودة ـ

تُفْلت من حنجرتي غائمةً مضببَّة

وتستحمّ في مساقط الوحل وفي الأصباغ

تدخل في الجدران

تصبح ـ يا يمامتي ـ زنزانةً يحرسها السجّان

قصيدتي إدانة

تطرُدني للعالم المغلق في شوارع النهار. .

١٩٦٧/٥/٩

ـ ١٣ ـ

هذا الفراغُ ـ الرُّمْحُ في مملكة الأشياء
منغرسٌ في نقطة الصميم
يدورُ في تحوُّل المركزِ وانْفلاتِه في اللين والصلابة
يطلع تحت خيمة السماء
مجرةً تائهةً ، يسقط في السحابة
يرقص في الحدائق التى تنبُت أو في الجبل القديم . .

* * *

الثمرُ الذي يشرب من عصارة الطّيْف ويرضع الهواء
ينضجُ في الذؤابة
تأكله أغربةُ الليل وبومةُ النهار
والطينةُ ـ النساء
تشقها شرائعُ السبي والاغتصاب
تحرثها أسنّة الرعبِ فلا تنبُت في

أجراشها سوى طحالب العوسج والجنابة

* * *

هذا الفراغ ـ اليأس في مملكة الإنسان

أقامني على السراط في جهنم الكتابة .

ـ ١٤ ـ

من أنتَ ـ يا حوتًا بلا عينين يمزُق في المضايق والبحار
يرتاح فوق جزائر اليأس الظليلةِ
أو يموتُ بأرخبيل الإنتظار،
يفّر من رمس إلى رمس ، تحوّله الطقوس
عصفورَ نارا !
من أنتَ . . يا شبحًا يجوسْ
في الليل من منفًى إلى منفًى تطارده الشرائعُ ،
والفرارْ
رمْحٌ يمزِّق في دخائِلكَ النهار،
قمرٌ وليس له بسقف الأرض نافذةٌ،
وعينُ دمٍ بقلب الأرض ليس لها قرار.

من أنت . . يا شحاذَ هذا العصر . .

يا ملكًا يتوَّجُ في القفار
الخيمةُ الزرقاءُ عرشُك والرياحُ الصولجان
والرملُ قصرُكَ ، والقصائدُ والحروف
رئتان يطفَح فيهما السلُّ المخرِّبُ .
في الضلوع
نسرٌ إلهيٌّ يجوع
ويطير من جبل إلى جبلٍ ،
يموتُ ولا يموت . .

ـ ١٥ ـ

يسألني الطحلبُ في البرية :

من الذي أقامني في الطرق الرملية

وشدَّني منخطفًا للسحب المجففة

أحلمُ بالأمطار والجذور ! !

تسألني حشائشُ الحقول :

من الذي حَمَّلنَا حوافرَ الشجر

فمزَّقتْ أرحامَنا ،

وشربتْ ما انصبَّ من ساقية الفصول

واختمرَ الطميُ بها ، ولوَّحَتْ يداه في ضفائر

الثمر ! !

تسألني الكرومُ والأشجار:

من الذي أوْقَفَنا في الليل والنهار
واقْتَلَعَ الأفراسَ من جذورها ،
أطلقَها للنبع والحظائر المشمسةِ الظليلة ! !

تسألني قوافلُ الأنعام :
من الذي خَبَّأنا في الشَّعر والوبر
أقامَنا من جلدنا في الليل ،
أطفأ الشمسَ وأطفأ القمر
فانتحرتْ في دمنا الأشعار
واحترقت مناجم العبارة ! !

تسألني الدماءُ في العروق
عن فَلَكِ البروق
عن كوكبٍ يطلع في الظلمةِ أو يطلع في النهار
يغرسُ في عناصر الأرض خناجرَ «السَّواءْ»
يربط بين الطحلب البريِّ والهواء

والغيمِ والقصيدةِ المخبّأة
والعرسِ في قريتنا والقمرِ المضاء
يربط بين البحر والجذور
والسَّعَفِ المخضرِّ والقافلة المهاجرة . .

١٩٦٦

ـ ١٦ ـ

أحبُّكِ . . في دمي النيرانُ والبَرَدُ
وفي صدري الأساطيرُ التي تلدُ
وهذا الصبحُ يغسلُ قلبَه في وجهك الخمريِّ ،
يشربُ ، ثم يرتعد
ويُقبل ثم يبتعد
ويصعد عاليا للشمس ، يغطس في جدائل شعركِ
الأسود .

* * *

خلالَ تجاربِ الموتِ الملَّونِ . . كان نعشُ الإزدواجيّة
يطيرُ بجثتي ويحّط في المدن الرمادية
ويطلقني بها في سُتْرةِ الأحياء
يقيمُ حوائط الكلمات بين القلب والشفتين .

* * *

يعلِّمني انفساحُ العمق في عينيكِ كيفَ أراكِ في البئرِ
عطيةَ هذه الأرض التى منَحتْ طفولتَنا أغانيها
وكيف توالدَ الماءُ المقدسُ من ركاز الطحلب المخضرِّ والنارِ
تعلّمني الجدائلُ كيف يطلع في دمي المغليِّ وجهُ الشمس،
كيف تُقَطَّر الأصواتُ،
كيف يجيءُ عبر سحابة الإيقاع جبريلُ
وكيفَ تغوصُ ـ كي تخضرَّ ـ في الأرض التراتيلُ
ووجهكِ . . هذه البوابةُ الخضراء
تُفَتِّحها يدُ التكوين
تربطني بأحصنة السحاب وشهوةِ الأشعار والسفرِ

تباركَ وجهُكِ ـ الأرضُ
تباركَ وجهك ـ الإيمانُ والرفْضُ
وقُدِّسَت الحروفُ الحرةُ المغروسةُ الإيقاع في قلبي
تسطِّر في دمي أسطورةَ التكوين والخلق
وتطرح صوتَكِ المنقوعَ في الرحمة

أيا وجهًا بكيتُ له، انتظرتُ شموسَه من قبل أن أولد
فكنتِ طفولتي والشعرَ والإنسانَ واللقمة . .

* * *

تعذبني عطايا القلب .
وتثْقلني الثمارُ وأفرعُ الشجرة
(بقلبي أفرعُ الشجرة
تَقَصَّفُ تحت إكليل العناقيدِ
وتصرخ في انتظار الآكلين،
تَفَتَّحتْ في زهرها الألوانُ والغبطة
ووسوست الفروعُ بغنوة الأطفال في العيدِ)

هبيني منك بعضَ سماحة الأَخْذِ العظيم،
وأدخلي كفيْك فارغتين في قلبي
خذي عني، خذي مني، ارْحميني من دمي المُثْقَلْ
بما فيه من الأغصان والأوراق والأثمار
فهذا العالمُ المقفل

بخيلٌ ليس يأخُذ من دمي شمسًا ولا قمرًا ولا أشعار . .

* * *

سأشعل في فمي باكورةَ الكلمات

أحبك . . آه يا باكورة اللغة الإلهية

حروفُك في الضلوع تَفَتَّحُ الدهشة

وأغنيةٌ تشطِّرُها المخاوفُ والرؤى والليلُ والرعشة

تلفّ حبالَ غبطتها على الرقبة

تحرِّرني وتأخذني

إلى أرض الخرافةِ والدم السفليِّ والجنِّ

وتطلقني مع الظلمات والأسفار

فتهرب من فمي الكلمات .

أتيتُكِ . . أخرسَتْني دهشتي الأولى

فلمْ أصمتْ ولم أنطقْ . .

ـ ١٧ ـ

أيها الوجه الذي أوْمأَ لي ذات مساء
لَفَّكَ الليلُ فأحببتُ بعينيك الخَفاء
لفكَ الضوءُ . . فعدنا غرباء . .

بين عينيكِ شجيراتٌ من الشمس القديمة
وانتظارات الفصول
بين عينيكِ تآبينُ الأغاني
وبقايا القبلة المرتحلة
أطلعتْ في القلب عنقودَ الهزيمة

كلُّ شيءٍ غامض مما مضى في الزمن الغابرِ أو مما يجيء
راقصٌ مرتعشٌ في شفتيكِ

آه يا معجزتي المنتَظرة
لم يزلْ يصرخُ في قلبي البريءُ
صيفُ أشعاري الذي يهربُ مني
وأنا أركض في ليل الشتاء .

أيها الوجه الذي أومأ لي ذات مساء
فَتَشَهَّيتُ سكونَ المقبرة
علّمني أخلع أو ألبس ميراثي ولحمي
اسْقِني من مطر الدهشة كي ألبَسَ في الليل قميصَ
الشعراء
واتخذْني ليلةَ العرس خضابًا أو ثريدة
وارْمني بالرّعد والصاعقة المشتعلة
علّمني أولد من حنجرتي
فأغني بالولادات الجديدة . .

مملكةُ اليأس

وطنُ الإقامةِ الدائمة

- ١ -

في أرض القلب المرتعش العريان
أمشي مرتعدًا عبر حقول الدم
فيحط عليَّ ويخنقني العطرُ المعتم.

هذا الشجر الأسود
أطعمني ثمر الآلام
فامتلأتْ سلةُ روحي بالفاكهة المرة.

حين رقصتُ وحيدًا وانتظمَ الإيقاع
انفجرتْ خشخاشاتُ الشجر الأسود
عن مطر الشهوة والأجساد
وامتدتْ أقواسٌ قزحية
الأصفرُ شمس برية

والأخضرُ قمرٌ يصعد في السحب الحمراء .

ينتفض الشجرُ عن الأزهار
تنْفتح عيونٌ وحْشية
تأكلني تلفظني ،
والأجسادُ البلورية
تفتح لي نافذةً تحت سماء العالم .

عبر حقول القلب المتعب
يشنقُني الضوءُ الدائرُ في عين الكوكب
والموتُ الطافح بالأحلام وبالأسرار
غيمٌ يتفرّعُ من نهديْه المسمومين . .

ـ ٢ ـ

شحاذُ الليل أنا، متسوِّلُه العريان
تتعامَدُ في وجهي طرقاتُ العالم إذْ ينتصفُ الليل
ينْفتح البابُ فيرجُمني الإنسان
ينْغلق فتنهش قلبي الظلمةُ والأضواء
وأنا أبحث عن صوتي المجنون . .

-٣-

جرسٌ فضيٌّ في الساحة
والبلبلُ في القفص الليليّ
تتلاقي الأصواتُ المذبوحة
تتلاقي فوق القنطرة المسحورةِ أحصنةُ الأصداء
تتعارَك، تغرسُ خنجرَها في القلب

* * *

ما بين الحركة والإيقاع
أسْقطني اليأسُ قناعًا بعد قناع
والرقصُ الطالعُ من زفرات القلب
يتهدَّم في زلزال الهارمونيّة .
ما بين الظلمة والأضواء
احترقتْ سنبلتي الخضراءُ، انطفأتْ مسرجةُ الأسرار
واستوطن قلبي أرض اليأس

٢٠/ ١٠/ ١٩٦٧

تَكـــوين

ـ ١ ـ

في قلبي تخضرُّ جذورُ الصيف
ينصبُّ الماءُ الذائبُ في ألوان الطيف
ينصبُّ الماءُ فيطفئُ في أعماقي شمسَ الخوف
تشتعل الشمسُ الأولى في ظلمات الصدر
تولدُ أوَّلُ ريحٍ من أرحام الفجر
وأنا أهبط عبر فصول الأرض
مندهشًا تلمع في عيني سيماء الضيف . .

* * *

في قلبي نهرٌ يرمي طميًا من سبعة ألوان
يتحدّر عبر جبال القمر السبعة ، يعزف موسيقى الفيضان
فيغوص الصوتُ إلى أعماق الطمي الحي .

* * *

تتهدّل أشجارُ الرمّان

بالثمر الأشقر والأزهار

وتحط الأطيارُ النيليةُ في أشجار السنط ،

تطير الأبخرةُ الأرضية

ويحطّ يمامُ الصيف على المئذنة القزحية

وأنا أهبط عبر فصول الطمي الحي . .

ـ ٢ ـ

أتّكئ على أبواب الدم
أغترف الطميَ الطافحَ بالألوانِ وأنصتُ للموسيقى
الأرضية
وأمّر خلال الباب الضيق . . أحمل بعض الطين
كي أنفخ فيه حُلُمَ الأسفار الليلية
وأشكل منه هياكلَ أمنحها الأسماءَ الأولى
وأردِّد بعض مقاطع من لغةٍ حبلى . .

-٣-

مَنْ أطفأ في أعماقي شمسَ الدم
فانهدلتْ سبعُ سمواتٍ من صمت
وانسربتْ في ظلمات اللعنة موسيقى الفيضان
فأنا أحمل في صدري قنديل الموت
أمرق عبر فصول الأرض وأبحث عن ألوان الطيف!!
١٩٦٢

سفرٌ في الظهيرة

١ـ تَعَلُّلٌ:

أبو الهول مازال يطوي جناحيه ،
يُقعي ببوابة الأربعاء
وطفلٌ تعرّى ، ومن آخر الليل جاء
تحسَّسْتُه أولَ الليل ، علَّلْتُه بالغناء
فمن أيِّ ركن أتى صوتُ فيروزَ والليلُ ينصبُّ
زيتًا بلا رقعةٍ من فضاء ! !

تحسَّسْتُ في لجة الزيت قلبي . . تحسَّسْتُ طفلَ
الهزيع الأخيرْ
وأَلْقَمْتُه حُلْمَة الفجْر ، غَطَّيْتُه بالضمير
تحسسْتُ في لجة الزيت بوابةَ الأربعاء
فنادى أبو الهول : أَقْبِلْ
فقد جئتُ باللغز . . لا . . ليس لغزي القديم . .

٢ـ أمـام المـــرآة «مونـــولـــوغ»:

«ترزْياسُ» قد جاء من آخر الأرض
بالبُشْريات التي فاحَ طاعونُها في المدينة
توارى على مكتب «الموجنا» في البناء العتيق
وأغفى على قهوة الصبح بعد ا نتهاء الجريدة
وكانت أحاديثُه عنكَ، عن سرِّ عينيك
(لكنني كنتُ أبكي طوالَ النهار)
ترزياس ما كان يوما صديقي
كهاناتُه دوَّختْني بطاعونها منذ صيفي الأخير
تكلمْ . . ولا تفتح العينَ . . ما سرُّ عينيكَ . .
هلا غسلتَ الجبينَ الذي ضرَّجَتْه الدماء
(ولكنني أعْجَبُ الآن . . ما سرُّ هذا الدم
الأسود اللون فوق الرداء؟!)

أنا . . ربما كنتُ طالعتُ عينيكَ في الصيف

لكنني منذ موتي الأخير

نسيتُ الذي كان .

هل أنت أسْقيتني الموتَ ؟ !

هل كنتُ أغمدتُ سيفي بجنبيكَ ؟ !

من مات منا ومن ظل فوق الجسور؟ !

تكلمْ . . ولا تفتح العينَ . . يا للمرايا التي تجيب ! !

٣ـ الموتُ عطيّةُ الأسئلة:

ومن آخر الأرض جاء «المسيخ»
ومن حوله جوقةٌ من تلاميذه المؤمنين
يئنّون ملءَ الصدور:
(رأيناه في هالة الشمس يمشي على
صهوة الضوء . . فاخضرَّ من ألّهوه .
وهبّوا من الموت . .
كنا سمعناه يتلو تعاويذه فارتوينا صفاء
رأينا على كفّه جنتين
فإن أغضبتْه السؤالاتُ . . ألقى على
الأرض من ناره حفرتين
تعالَوْا إلى بيعة العمرِ في ساحةٍ خارجية . .)

وكنا حواليْه مرضى صدور

تعاوَوْا إلى رشفةٍ من سرور

وساءلْتُه :

هل تقومُ القياماتُ في الصدر،

موتايَ في غيْهب الصدر هل يُبعثون؟!

ومن حفرة النار ناديتُ : أطلق يدي يا مسيخ

فمازال بيني وبين المرايا حديث طويل . .

٤ـ وطنٌ في عينين:

بأقمار عينيكِ أرضي ، وفي رعشة الصوت لونُ السماء
وأطيارُكِ الخضرُ مازلن يُنْشِدْن شعرَ اللقاء
فَينْهشْنَ قلبي ، يُعَلِّقْنَه في ثواني المساء
يؤرجحُه الصمت عبر الثواني . .

بأرجوحة الصمت تهتزّ أثمار لحمي
وفي الصدر أطيارُ ماءٍ ، عشاشٌ غماميّةٌ
خَرَّبتْها فصولُ الدخان
فلا تسكبي صوتَك الرطبَ فوق الزمان الترابيِّ ،
لا تتركي منبتَ النهد يغتالُ حزن الرحيل
ولا تكشفي سُرَّةَ النار،

لا تغسلي صهدَ يومي بواحاتِ عينيك . .
في الصدر قولٌ يطول
ويمتدّ ما امتدَّ سيرُ الفصول
فمن أيِّ يومٍ أقصّ الذي مَرَّ بي،
أيِّ ساعاته، والتحامُ الثواني على
بركة القيظ زنزانةٌ تسجن الكون بين الضلوع ! !

تعاليْ معي . . وانْظريني مع القيظ أطوي طريق الرجوع
وأجتازُ بوابة الأربعاء المميت
وتغْتالُني الشمسُ والتبغُ يومَ الخميس
وصحبي يقولون لي :
ارْوِ شعرًا عن الحب في صحوةٍ من ربيع
وقلبي يناديكِ . . يا واحةَ الإنتظار . .

٥ـ قطارُ الصّهدِ والرماد:

قطارُ الرماد الذي يلْعق الصهدَ يطوي طريق النهار
ويمضي بدوّامة الأرض يسْقيه صيفُ الحقول
لظّى قاتلَ السَّوْطِ .
يعلو الضجيج
ويهتزّ سوطُ اللظى في الزجاج
وتنحلُّ أثقالُ جسمي ، يموتُ الذراعان والمنكبان
ويمشي به مبضعُ الثلج والموت ، ينحلُّ عضوًا فعضوا
ويهتزّ في عنفوان اللظَى طائفٌ منكِ . .
تنْأى سياطُ الضجيج الترابيِّ
أخلو إلى فَيْءِ عينيكِ بين الحقول . .

أرى بين عينيكِ ميلادَ كَوْنٍ

ونافورةُ الخصب تسْقيه خمرًا وصحوا

ويا طميَ قلبي . . تحسَّسْتُ عينيكِ حتى أرى

مَوْلِدَ الأرض فاصفرَّ لوني

وأحسسْتُ بالثلج يمشي خلال العظام

وبالنار . . بالنار تجتاح رأسي

ومازال يجري قطارُ الرماد الذي يلعق الصهدَ

تحت النهار . .

مدينةُ البحر

تعشش في صواري الموج شمسٌ برتقالية
وأقمارٌ من الملح المفضَّضِ والنجومُ الإستوائية
وريحٌ من كنوز اليودِ وَالزُّرْقَة .
(دخلنا في طقوس الأرض
وأفْرغْنا الدمَ البشريَّ في الصلبان
وأشبعْنا من اللحم المعذَّبِ شهوةَ السجان
فَحَفَّتْنا طقوسُ الأرض . .)

دخلنا في عروق العالم السفليِّ صفا بعد صفٍّ ،
واطَّرحْنا بؤسَنا الأرضيَّ في جوف التوابيتِ
دخلْنا عُرسَنا الليليَّ ، سرنا في الينابيع الخرافية .

دخلْنا في عروق العالم الرمليِّ ،
في بوابةِ البحرِ
سمعْنا العالمَ التحتيَّ يضحك في كهوف الملح والظلمة
وأسْكرَنا عبيرٌ طيبٌ من نطفة الأشياء

رقصْنا رقصة التكوين في الرحم الهيوليَّة
وغنيَّنا لها :

في البدء كان الماء
وفي أعماقه تابوتُنا الليليُّ ينتظرُ . .
(أتيْنا يا طريق الخلق والتكوين
ويا شمسَ السماء البرتقالية
خرجْنا من فصول الطين
عراةً ، في انتظار خلاصنا ونبوءة التنين)

وصدَّتنا عن القاع المقدّس ظلمةُ الأعماق
وحَّفتْنا سباعُ البحر، موسيقى من الفوسْفور والتّوتْياء
رمتْنا رغوةً دَمَوِيَّةً بضفائر الأمواج .

(هنا . . في موجة الأعرافْ
تَفَتَّحَ رعبُنا عن أعجب الأعشاب والأصداف
وأعْشَتْنا النجومُ الإستوائية

وحدَّقنا انتظارًا لانفتاح البحر عن أبراجه
الخضراء
وآيات الرؤى وبشائر التنين)

وأَرْعَدَت السحائبُ . .
شَقَّ أعتابَ المدينة خنجرُ البرقِ
و. . كانت صرخةُ التنين في الأفق
رأينا وجهه بثريْن من لهب
وفي شِدْقيْه ألسنةُ البروقِ ورغوةُ الشُّهبِ

رأيناه يمزِّق نفسه ، ينصبُّ أمطارًا من الأسفلت والأحجار
ورعبًا في عناقيد الثمار وصرخةً عمياءَ في الأسوار
وأرضًا ضاق فيها المهدُ واللحدُ
فتحنا الأعين الرَّمْداء
فلم نشهدْ سوى شمسِ المجاعةِ
صَلَّبَتْنا فوق جسر اليأس . .

١٩٦٦/١/٢٤

أغنياتٌ من زمن السنابل المحترِقة

«تنويعاتٌ على ألحان شخصية قديمة»

١ـ أغنية المسـافر:

تَقَرَّحَتْ يدايَ من حلاوة الثمر
في ليلة التواصل العميق
يهجرني القمر.

لبستُ شهوةَ الهواء
أغنيتي تَحَيُّري، ومأكلي أرغفةُ الشكوك
ومشربي من مطر السفر.

أحبّ في ملامح الوجوه صمتَها
أحبّ في الأشياء صوتَها
والليلُ خنجرٌ من الصدى والصوت في الضلوع

نسيتُ أنني أحب أفرع الشجر.

تَطَوَّحَتْ يدايَ، دَوَّختنيَ الدماءُ في العروق
وحينما وصلتُ عند بابك الخفيِّ يا أمير
سمعتُ صوتَك الممزَّقا
يسيلُ في الحوائط المرتحلة
مرتعشًا ومرهقا
يقول لي:

تبحثُ في المشاهدِ التي تطلع أو تغيبْ،
تبحث في الغرف
لكنني أكون دائما بغرفةٍ مجاورة..

٢ـ أغنية الشحّاذة:

أرى سحابةَ اللبن

تمطرُ أو تحطُّ في الصدور

وولدي «منصور»

يرقص في اسْتدارة القمر

وليلةُ المخاض لا تجيءُ . . غير أنني أحسُّها تدور

مسرجةً مطفأةً وشوكةً تطلع في الثديين

ونخلةً تأكلها الصاعقةُ السوداء . .

آرى يمامةَ الدماء

تفتح لي نوافذَ الفضاء

أصرخُ :

يا منصورْ

يا قمرًا محترقَ الجدائلْ

يامطرًا، يا نعمةَ السنابلْ

الوجه في استدارة الرغيف

والقمرُ المخيف

مكَفَّنٌ في الثلج والرماد

معلَّق في السعف الأسود تحت قبة الفضاء . .

٣ـ أغنيةُ الطفل:

في الليل . . كانت الكئوسْ
والزنبقُ البريُّ والسنبلةُ الخضراء
أغنيةً بيضاء
ترقص بين الرحم المليءِ والثديين .

كانتْ شجيْرةُ الرياح والربابةُ المعلقة
يمامةً تطير في حدائق النهار
تلقُط ما ينبت في العينين
من حنطة الغناء . .

الصمتُ والبلبل في انتظار

والكوكبُ النائمُ في مضغتِه المعتَّقة
يبحث عن أسرار
كي يملأ الأرضَ ـ السريرَ بالضحك
ويملَأَ الأرجوحةَ ـ العالمَ بالأشعار. .

٤ـ أغنية الصبي:

خطا الصبيُّ خطوتين في الهواء
رمى حصادَ يومه من الضحك
وأخْرسَتْ يداه ما أسمع من ثرثرة الأشياء
وحطَّ في الضلوع نحلةً مخمورةً . .
خطا الصبي خطوتين في الضمير
وأخرجَتْ يداه من صِداره القمر
فانقشَعتْ سحابةُ الأغنية الصديئة
عن شمسه الخبيئة
بلَّلها بريقِهِ وحكَّها بشعره . . فَنوَّرَتْ
وعانقَ الهواء
خطا الصبيُّ خطوتين في الدماء

يحملُ من طينته القديمة
أغنيةً هاربةَ الإيقاع . .

خطا الصبيُّ خطوتين في العروق
يشربُ من سحائب البروق
يصرخ في قافية الرعد . .
وفي الصدى ذوَّب قلبَه الصغير. .

٥- أغنيةُ المغني الخائف:

في جسدي المحترق الدماء
توجُّعٌ منطفئٌ مضاء
ونجمتي المخضرَّة المدار
تسقط في الأسرار.

جمجمتي - المدينةُ المخرَّبة
تسكنها يمامةُ الدخان
نسيتُ - في الشواطئ المحرَّمة -
سنبلةَ الغبطة والدموع
أحمل في الضلوع
أغنيتي المعذَّبة.

القُبْلَةَ الذائبةُ القديمة
كالوشْم فوق الشفة اليتيمة
والزمنُ الرمليُّ والفصول
قصيدةٌ تسقط في المجهول .
أصرخُ :
يا يمامةَ الهواء
يا زَخَّةً من مطر الأصداء
الشعرُ في حنجرتي يموت . .

٦ـ أغنية المغني اليائس:

الكوكبُ المرتعشُ الوحيد
يعبر ـ في خريطة الفراغ ـ
المدنَ الثلجيةَ الغريبة
يمدّ راحتيه من أشرعة المحيط
فتلمع المراكبُ التي تُعشب في أخشابها أحلامُنا الأرضية .

أردتُ أن أكون قطرةً مالحةً في ثبج المحيط
ومركبًا تضم عاشقين ـ قاتلين ـ جثتين
أردتُ أن أحمل في أغنيتي الشطوط
والقمرَ المفضَّض الجريح

اللغةُ الضيقةُ الخرساءُ
أنشوطةٌ تضيقُ حول الرقبة
وجثتي المعذَّبة
تحملني أحملها تنهشني تنهشها ذبابةُ الحروف .

٧ـ أغنيةُ المغني الأخْرس:

العالمُ ـ المرضعةُ التي تحمل في الثديين
سحابةً وقمرًا
تسكبُ جدولَيْن يطلعان في الأشجار
والصمتُ في حنجرتي قصيدةٌ داميةٌ عميقة
وآهة رقيقة
الصمتُ في غاشية الأحلامْ
أغنيةٌ تهرب في الظلام .

تهجرني يمامةُ الحروف
يُمَدُّ لي السماطُ بالأطعمة الغريبة
والزَّهَرِ الذي يُقطف من جنائن التخويف

والأكؤسِ الفارغةِ المليئة .

الليلُ تحت خيمة الأبعاد
يمنحني ساقيةَ المداد
يمنحني دفاترَ الأوراد
والقمرُ الممتلئ الثديين
بالعشب والطحالب الملونة
يأكله الجراد .

يا شجرَ النعاس
فلتعطني فاكهةَ الأجراس
ولْتعطني الأجراسْ . .

١٩٦٥ـ١٩٦٦

الحصانُ والجبل

«قصائد»

١ـ القصيدة الأولى:

حصانُ الريح ـ عبر مفازةِ التكوينِ والخلقِ ـ
تعلَّمَ رقصةَ البرْقِ
ودَحْرَجَةَ العواصفِ والشموسِ الخضْرِ من
عرقٍ إلى عرقِ
وتفجيرَ السطورِ الخُرْسِ في كرّاسة الرّعدِ الإلهية . .

* * *

تراكض في بوادي الصهدِ
فانسكبتْ خَوابي الطينةِ الأولى
وقامتْ في مسايلها المدائنُ والقبابُ ،
وفُجِّرتْ بالزيت والخمرِ الينابيعُ
وشَدَّ صهيلُه الوترَ المقدَّسَ في رباب الأرض .

* * *

حصانُ الريح خَوَّضَ في عُباب البحرِ
فاشتعلتْ شموسُ العشب والكبريتِ والزُّرْقة
وأزْهَرَت الصواري الزرقُ
وامتلأتْ من الزيت القواريرُ
وفُتِّحت الموانى الألفُ ، وانفجرتْ من الضوء النوافيرُ

* * *

حصانُ الريح مَرَّ هنا ، وأبطأ ساعةً بحدائق الشجرِ
فلم يُشْبعْه عنقودٌ من الثمر
ولم تُسْكرْه أقداحُ اللّقاح العبقريِّ
ـ وكان فصلاً من فصول الجوع ـ
تمرغَ ساعةً في الوحل وارتعشتْ قوائمُه بطين الرعب ،
عافَ حشائش الأرض الطفيْلية .

حصانُ الريح مَرَّ خلال أبواب الهزيمة نحو
أرض الصمت في بَرِّيَّةِ التّيه الخرافية . .

حصانُ الريح غاصَ وغارَ في الجبلِ
وأطْبقت الصخورُ عليه ،
أَنْصَتَ للمزامير السديمية
يفتِّش عن بوارقها الغنائية
وحَمْحَمَ علَّه يسترْجع المنسيَّ من كراسة الرعد
ويرقص رقصةَ البرق الإلهية . .

٢ـ القصيدة الثانية:

في الحقول الحجريّة
غرسَ الليلُ جذوراً غجرية
وأساطيرَ غناءٍ بدوية
فارتوتْ في كبدِ الصخرِ الكرومُ الأزلية.

في الحقول الحجرية
رئةُ الأرض حدائق
وعروقٌ غُرِسَتْ في مدن الصمت لكي
تسكبَ في ظلمتها خمرَ الحرائق..

* * *

ما الذي يسمعه الآن حصانُ الأبدية!!

ماله يركض ما بين العروق الجبلية

ضاربًا في عصب الأرض شرارا

فالعروق ارتعشتْ ما بين شَدٍّ وارتخاء

نَفَضَتْ رعشتُها أبنيةَ الأرض جدارًا فجدارا

والبقايا من طلول الزمن الأخرس والرعبِ اقْشَعَرَّتْ

وأمالتْها رؤى الزلزلة الأولى انتظارا . .

* * *

يا حصانَ الأبدية

دُسْ عروقَ الأرض كيْ تحترق الأرضُ

وتخضرَّ الدماء

وانغرسْ في عصب العالم واركض في الجذور. .

٣ـ القصيدة الثالثة:

أتيتُ ـ كما أثْقَلتَني المواريثُ واستحكمتْ في دمائي

الشريعة ـ

وشيخوخةُ الدهر قد أضْرَمَتْ نارَها الفلكية ،

فاحترقتْ كلماتُ الطبيعة

وأطعمني الصمتُ خبزَ الفجيعة

فجئتُ ـ كما طردتْني الوصايا ـ

من البحر والطرقات السحيقة

فأوْقفني مؤلدُ الرّعْدِ بين العروق العميقة .

* * *

أتيتُكَ ـ يا جبلَ البدْءِ والمنتهى ـ باحتراق الجروح

وقد أَخْرَسَتْني التجاريبُ ،

حنجرتي احترقتْ ،

وتكشَّفْتُ عن عورتي وتَمَرَّغْتُ في طرقات الفضيحة

فجئتُ ليستَرَني شجرُ الإنتظار

لأسمع ما يَتَهزَّمُ في رئتيْكَ ، وأغسل قلبي

بماء الشرار

وآكلَ من ثمرِ الرعد كي أستردَّ الغناء . .

* * *

حصانُ المخاض الطويل

يراقصُه قمرٌ من دماء

لتنْفَتحَ الأرضُ بوّابةً للعروج . .

٤ـ القصيدة الرابعة:

ضَرَباتُ الفأْسْ
تنغرسُ بقلب العالم كي يخضرَّ سراجُ العرس
ويطيرُ ترابُ الأرض لكي تغتسلَ سماءُ اليأس . .

* * *

سيلُ الأبناء
يتلفّت فوق حصان الريح الآتي من رحم الظلماء
يتعلّم خلْطَ الألوان السبعةِ واللغةَ العذراء
ويراقصُ سيفَ البرق . .

* * *

الجبلُ تقصَّفَ تحت الصاعقة الخضراء
فاخضرَّتْ فيه جذورُ الخلق

وانفتحتْ كراساتُ الرعدِ . .

فمنْ يملؤها بالأشعار!!

١٠/ ٣/ ١٩٦٦

٥ـ تجسُّد:

أمي . . ضربتْها صاعقةٌ خضراء
فانفجرتْ من قدميْها العاريتين عروقُ الماء
وتمايَلَ في إبطيْها النخلُ ودارتْ ساقيةُ الأشجار
واختبأتْ في رئتيْها النار
وتكسَّرَ في عينيها بحرُ العنبر والقصدير . .

* * *

أمي كانت تتقلَّب فوق سرير الطّلْق
تسقيها شمسُ الصيف . . فيندفق الأبناء
أمي ولدتْنا دوّامات بشرية
تتراكض، ترقص في الأبواب . .

* * *

أمي هجرتْنا ذاتَ مساء
ركبتْ مركبةَ الهَيْضَةِ والبلاّجْرا والتيفوسْ
فرضعنا خشبَ المقصلة السوداء
وشربْنا مطرَ السُّوسْ
ودخلْنا في غابات الخوف

* * *

كنا في قلب النهر . . ولم يمنحْنا العالمُ رشْفَةَ ماء .

صوت ١ :

من يُنْطِقُ عنا الرعبَ الأخرسَ والأحلامْ
من يشعل قمرَ الجوعِ المطفأ في بيت الأيتام ! !

صوت ٢ :

قلبي مسموم
حنجرتي احترقتْ ضحكا
وانطفأتْ أغنيتي حبّا وبكا

وشبعتُ . . فقد غنيتُ طويلاً في أعراس البوم

صوت ١ :

من يأخذُ منا الصوتَ المحْتَبَسَ المهزوم

كي يحمل صوتَ الطمي إلى أعتاب الأرض ! !

صوت ٣ :

سأصلي في ديوان الشعر صلاةَ النار

ليكون الخبزُ الدامي صوتًا في الأوتار

والرعبُ الأخرسُ قافيةً طينية . .

صوت ٣ متابعا :

من خوف الموت أموتْ

فاختبئوا في كتفيَّ المرتعشين

كونوا جسدي

كونوا في حنجرتي صوتًا

وانسكبوا في قلبي صمتًا

وانفجروا في عينيَّ الخابيتين .

يا أبناءَ الزمن الأبكم

كونوا في شرْياني الدم

لأجوعَ على باب العالم

وأدقَّ الخنجرَ في عينيه

وأغرس قافية الخبز الدامي

كونوا قلبي

كي أغرس في القمر المعتم

رُمْحَ الأشعار . .

١١/ ٣/ ١٩٦٦

مملكةُ الانتظار والرِّعْدة

أحزانُ الشبح الأول

لو أن الشمسَ القاسيةَ السوداء
قلعتْكم عن غيطان طفولتكم ورمتْكم في
عربات الغربة والصحراء
فخلعتم ثوبَ الدفء الأول
ولبستم رُقَعَ الألوان الثلجيةِ والديجور
لعرفتم كيف أموت
خطواتي كفني، غُسْلي مطرُ المنفى،
خبزي في كفَّيَّ هو التابوت . .

* * *

الجسرُ الواصل بين شتاء القلب وصيف الجوع
عرّاني ـ إذ أدْخلني في عينيكِ الواسعتين ـ

فرأيتُ العالمَ يرقص بين الزئبق والتوتياء
ورأيتُ شجيرات الحنّاء
تنسكب خمائرُها البنيَّةُ في أطراف
ضفائركِ المحلولةِ والكفين
ورأيتُ الله
يطردني من بوابتكِ الخضراء
موصومًا، في قلبي ضَبْحُ الجوع،
وفي شفتيَّ الآه
تتجمدُ في صمت الأشياء
تنْفَتحُ نوافذَ لا تعبرُها الشمسُ ولا تسكنُها الريح
تستلْقي في أسفلْت المنفى،
تركض في صحراء الزحمة واللغة الجدباء

* * *

القمرُ المعتم تحت سماء اليأس
صَلَّبني في ألوان الأعين،
طَوَّحَ بي،

فدخلتُ شقوق الأرض

وانسكبتْ في رئتيَّ مياه الخلق

وأتيتُ إليكِ غريبَ الوجه ومحتدمَ الكلمات .

أرأيتِ اليوم الأول حين تفجَّر قلبي بالآيات

أرأيت العام الأول حين انطفأتْ فيه الشمس

أرأيت السنة الكبرى حين انْحَلَّتْ رابطةُ الأشياء

واشتعل سديمُ البدءِ ، امتلأتْ بطنُ الطينة بالأبناء

فعرفتُ ملامحَ وجهي المنتظر المحموم

يترقبُ وجهكِ ـ يا نقّالة روحي في طرقات البغض ـ

يسترْجِعُ طعمكِ ـ يا ثمرَ الزقّوم ـ ! !

* * *

هذا وجهي . . امْتسخَتْ طيبتَه الأحزان

وانغرست فيه تجاعيدُ النسيان

هذا وجهي . .

كنت صغيراً مزْدَوَجَ الإسمِ . . فصرتُ بلا أسماء

هذا وجهي . .

* * *

النعشُ الأول يطلع لي في طرق الحيْرة والتغريبة
النعشُ الأول يطلع لي
فأراكِ الآن. . صدًى منطفئًا يحمل ما أفقدني
العالمُ من آيات الطِّيبة
وأشمّ ضفائرَكِ المخضوبة
وأحسُّ روائحَ بيتي الأولَ والجذُرَ المطلولَة بالأنداء
وأراني أرقص في عينيكِ خلال الزئبق والتوتياء
أتحسَّس صوتي الأولَ في شفتيك الصامتتين
وأراني شبحًا جاء من النسيان
والنعش الأول يطلع لي. .

* * *

كنتُ صبيا
وعرفتُ شعائر دفن الموتى دون بكاء
كنت صبيا أتسلَّق فرْع الشمس. .
فعدتُ وفي جنبيَّ الداء
وأتيتُ إلى أبوابكِ ذات مساء

فانهدم العالمُ واختلطتْ موسيقى الكون
ودفنتُ الميتَ في ناموس الفوضى،
انسربتْ روحي في شهقات اليأس
انطفأت في شفتيَّ النار. .

الجسدُ ـ الجثةُ قد طرحتْه طقوسُ الموت
فمررتُ خلال تناسُخِ وجهي في تاريخ
المحو وريح الخلق
وابيضَّتْ عيني حين انفجرتْ شمسُ العالم
تحت سماء الخوف
وصعدت السلَّمَ في ألوان الطيف
فتخلَّقَ وجهي ـ في شرنقة الظلمة والأضواء

وأتيتِ إليَّ وفي عينيكِ الشبحُ الأولُ والأحلام
فارتعشتْ غيمةُ حزني،
حطتْ في شفتيَّ الرعدةُ والإنكار

فابتعدي . . كرْمةُ روحي تنتظر الأمطار
والشبحُ الأول يحمل في جنبيه سيوف النار . .

٦/ ٤/ ١٩٦٧

زائـــــرُ الليـــــل

كانت عيناه الخضراوان
حلمًا يتخبَّطُ في أسفلْت الشارع والجدران
كانت آياتُ براءته عطشًا مدفونًا في الإنسان .
ألقى حبْلَ حصان المطر الأخضر في أوتادِ البرق
وتسلَّلَ عبر الغيم
ليزورَ النومَ الراقدَ في سُرُرِ الأطفال
يُطعمهم أو يسقيهم من ساقية
العسل الأخضر والأشعار. .

* * *

كانت قدماه الطيبتان
والجسدُ المرتعشُ العريان
يتسلَّخُ فوق صواري الليل
وانغرستْ في جنبيْه عواميدُ الصوّان
فانطرحَ على أطراف الأسطح والأبراج
مصلوبًا ينزف ، تنهشهُ قططُ الظلماء . .

* * *

السمك الأسودُ يقفزُ في تيّار الدم
ويفُّر: قطاراتٍ ملأى بالبشر الصُّم
أبواقًا تنبح، جنّا تصرخ في قمقم
أصواتًا تصرخُ في حنجرة الأسفلت:

مَنْ في جوف الظلمة مات
ومتى سيجف الدم؟!
٢٥/ ١١/ ١٩٦٥

الجهاتُ الأربع

- ١ -

كانت الأرض سريرًا للرياح المسرعة
فوقَه ألحفةُ العشبِ،
ورؤيايَ اخضرارُ الزوبعة
كان يمتدُّ . . فأمتدُّ وأخضرُّ معه .

ـ ٢ ـ

أثمرتْ فيَّ الرّوابيعُ شموسًا شجريَّة
ولغاتٍ غجرية
كنتُ في خابية الصيف نبيذًا دمويا
كنت في أقبية الأرض عصيرًا قمريا
حيثما غمغمَ في الأرض تدلَّتْ بالعناقيد الكروم

-٣-

طَعِمَتْ شمسُ النهار
جيفَ الأرض وبؤسَ الشجرِ
أوْلمتْ من ثمر الرعب ،
استضافَتْ قمري
آكَلَتْه جثتي واستنْزَفَتْ خابيةَ العمر المرير
ورمتْ مزبلةَ الأرض بأقْباء العصير
فأحالتْ جسدي المرْتعدا
طينةً ناشفةً في قدميها ، وصدى
من مزامير المجاعة
جعلتْ ذاكرتي تطْفح في ليلة عُرسي كَمَدا . .

ـ ٤ ـ

حينما التفَّتْ بعينيك الشجيراتُ الغريبة
سقطتْ شمسُ الفصول الشجرية
هربتْ في منبت الشَّعْرِ عبيرا
رقصتْ وارتعدتْ في قاع نهديْكِ زفيرا
غطستْ في شفتيكِ
نَبْعَ خشخاش وطيبة
آه يا بوابةَ الأرض الحرام
لعنتي تطردُني ـ للَّيل ـ منكِ . .

- ٥ -

زحف المشرقُ والمغربُ نحوي
زحفتْ نحوي الصحارى والشطوط
قُيِّدَتْ في وتد اليأس رياحي المسرعة
صارت الأرضُ جدارًا في الزوايا الحجرية
آه يا ألحفة العشب . . لقد صار السرير
حربةً تخترق الصدرَ، ورمحًا في الضمير
لم أعدْ أملك من تلك الخوابي القمرية
غيرَ حلمي باخضرار الزوبعة . .

١٩٦٦/١/١١

ثـأرٌ قـــديم

(مبحرٌ في النهار
لا أُرَجّي المقرّ
قبلَ يوم الفرار
قد يجيءُ القمر
من ظلام القبور. .)

أحدِّق في النهر طول النهار
فأنظرُها . . خلعتْ ثوبَها الداخليَّ ،
وألقَتْ ضفائرَها عُشُبًا في الجسور
ودقتْ خلاخِلَها الذهبيَّةَ
وانطرحَتْ في الصدى
وتغنَّتْ بيوم العبور
وخاصَرَها الموجُ قنطرةً بعد قنطرةٍ
فتفجَّر من ثديها فرحي وعذابي
تمايلتُ في مأتمي طربًا وسمعتُ من العُرُسِ المستباح
دفوفًا تنقِّر توقيعةَ الموت قبل البداية

سمعتُ الشرائط من ورق القصب انفجرتْ بالشّكاية
وبالصرخات التي طمستْها الرياح
فأرجعني الصوتُ،
ذكّرني رجْعُه الدمويُّ الرهيب
بأنّيَ خَلّفْتُها طُعْمَةً للجذور. .

* * *

(مبحرٌ في الدماء
لا أرى غيرَها
قبل يوم اللقاء
أبتني قبرها
في ظلام الصدور. .)
عروسي التي خطفتْها يدُ الموتِ قبل الزفاف
على هوْدجِ الموتِ كانتْ تبعثرُ من بركات الدِّما
في الضفاف
وفي الليل كانتْ مجزَّأةً. .
تَتَفرَّعُ منها الحدائقُ

يصفرُّ من شعرها القمحُ ، يحمرُّ منها القصب

توحَّدَ في صوتها الشعرُ والرعبُ ،

حطتْ على شفتيْها سحائبُ صمتٍ

وأمْطرَ في شفتيها الحوار

وغنَّتْ بمأتم روحيَ وانْتَحَبَتْ في الأغاني الجِرارْ. .

* * *

تَجسَّدَها الطاعمون . . ومُدَّتْ عطايا شجيْراتها في

طقوس الوليمة

تكوَّرَ من ثديها كلُّ ثدي وطارتْ ضفائرُها في الغمامة

على صدرها رُضَّعُ الأرض قد رضعوا اللبن المستحيل

إليها يسيلُ التوالُدُ، منها تجيء القيامة

تحطُّ على كل شيء علامة

وتصرخُ هامتُها من توجُّعها للخلاص

وترقص في عتبات الدّجى والنهار

فيُنْشِبُ إيقاعُ رقصتِها في دمي مخلبيْه

ويصرخُ بي: القصاصَ . . القصاصْ . .

* * *

أحدِّق في وجهك المستدير

أيا قمرًا طالعًا في ليالي التناسخ والزَّمْهرير

وأبكي بمُغْتَرَبي ويمزِّقُني صوتُها المستجير

فأهربُ في كل فجٍّ،

يطاردني صوتُها المتهدِّجُ في كل شيء،

ويصعدُ من ردهات الضمير.

١٨/ ٣/ ١٩٦٧

الثابتُ والمتحرك

تظلّلنا هذه الليلةُ القاسية
بما احْتَبَسَتْ تحت سقفِ الهزيمة
من الصهد والثمرات المريرة في شجرات النهار
وحطتْ بأعشاشها الدامية
عصافيرُ غربتنا ،
وتفحَّمَ فوق حدائقنا قمرُ الإنتظار
وفي مخدع الزمهرير
تَغَطّى بألحفة الرعب مسكونةُ الكائنات القديمة
ويرْشَحُ في رئتيها الحنانُ الأليم . .

* * *

بعينيَّ شمسُ الألوهية المطفأة
يؤرْجحُها فلكُ المتحرِّكِ تحت السماء
ويملؤها مطرُ الدهشة المرجَأة
وتجذبها طرقاتُ التوحُّدِ والإنفتاح .

بعينيَّ تصطرعُ الانعكاساتُ ،
يجري التداخل بين الجوامِدِ
يَدْفُقُ ماءُ التغيُّر فوق السطوح
ويولدُ في سنبل الممكنات المليئةِ
قمحُ الغرابة والمستحيل
فما كان ليس يكونُ ،
وما لا يجيءُ . . يجيءُ إذا ما تفتَّح بابُ الجروح
وينمو بأبخرة الموت فوق الجماجم عشبُ الفصول .

بعينيَّ عصفورةُ البرق تهبطُ في رقصةٍ فوضويَّة
تحاصرني وتهاجرُ بي وتحطّ بأصقاعها البربرية
وتهجرني في ظلام المجاعة
فأدخل أرض الفجيعة
أمدّ يدي في قصاع السقوط
وآكل منها ثريدةَ أسفاريَ الخائبة
وأبدأ في رحلة اليأس نحو التخوم التى تبتعد . .

* * *

أرى الأرَض والطبقاتِ القديمة
تُلملمُ أبعادَها ،

ثم تغسل كنْزَ ركازاتها في الدِّما والدموع

أراها تقيم وترقص رقصتَها الدموية بين الضلوع
وشمسٌ ، وأشجارُ ريحٍ ، وفاكهةُ الزمن الداخليِّ الحميم
تظلُّ على شجر القلب . .

تشربُ مني

وتسقط لو شربتْ من مياه الفصول . .

١٩٦٧/١٠/٢٠

انتظـــارُ شجـــرة

أراها . . على كل مُفْتَرَقٍ خلعتْ ثوبَها

وقفتْ تحت نافورةِ الليل والشمسِ

واغتسلتْ في مياه الفصول

أراها تكابدُ ـ في غبطة الإخضرار ـ

تَفَتُّحَها تحت نار التفرُّعِ أو عُرْيَها في ارتحال الغبار

وترحل في هالة الشمس طَوَلَ النهار

فتطلق من جوفها رغوةَ الضحكات العميقة

طيورًا تُهاجرُ في سلَّم اللون ،

تعطي المسافة

تجسُّدَها المستديرْ

وتمنحُ خطَّ الفراغ انحناءً ،

وتحضن في ظلِّها كائناتِ الهجير

فتمزُجُ تحت الرياح ـ السقيفة

مياهَ التخلُّقِ والرملَ والكلماتِ ـ الرموز. .

* * *

هنا . . الصمتُ في رحم الكلمات
تمدَّدَ في النطفة الأبدية
تخلَّقَ وجهًا وحنجرةً ذهبية
ومدَّ يديه إلى الزمن المتسكِّع في الطرق الجانبية
هنا الصمتُ يأكل من ثمر الأحَرُفِ اللَّوْلبيَّة
ويهرب عبر التخوم القديمة
ويغسل بالريح أرضَ الوليمة
هنا الصمتُ يبني بمملكة الأبجدية
ويرفَعُ طميَ الشعائر سنبلةً في الحصاد الخبيء . .

* * *

إذا زحف الليلُ . . أقفلْتُ بابَ الحواسّ
لأمضغَ ما قد مضغت طوال النهار
من الضحكات المريرةِ والإكتئاب الفَرِح
وأطلقْتُ في وطن الليل مُهْرَ النعاسْ
ليصعدَ بي سلَّمَ الرمز أو يتقدم في الغابة المعتمة
فيمنحني دهشةَ الأعين المفعمة

بشمس البداية والقمرِ الأنثويِّ العظيم . .

* * *

أراها تسطِّر تاريخَها الحيَّ في كتب الطحلب

الزغبيِّ افتتاحًا

وفي كتب العشب نسْغَ اخضرارْ

وفي كتب الورق المتجدِّد يغلي التداخلُ والإختمار

وفي الزهر تسْتَقْطِرُ الشمسَ ،

تعجن في رئتيْها لقاحَ العناصرِ،

تملأ سلَّتَها بالثمار

وتقفز عبر تواريخها الشجرية

مواتًا طلوعْ

خريفًا ربيعْ

تسطِّر في الثلج والنار آيتَها العبقرية

وتسرع في عربات التوالد ،

تصعد منحدرات الفصول

لتصبح أولَ ما أطلعتْه الخلائطُ ،

آخرَ ما أطلعتْه العناصرُ في أرضنا الدموية . .

* * *

تُغَرْغِرُ في دمعة الحبِّ

تغسل إيقاعَها في دم القلبِ

ترقص عبر المنافي البعيدة

ويخنقُها معجمُ الرعبِ

تُولَدُ في معجم تَتَأَكَّلُه النارُ

تفتح أبوابَها في الرياح الجديدة

وتأخذُ من كرْمة الفرحِ الداخليِّ العظيم

حلاوتَها ، والمرارةَ من عندليب البكاءِ الكظيم

وتغضبُ منّا بنا

وتفرُّ بأقمار أحلامنا

وتهزّ مراقدَنا المعتمة

لتصبح أولَ ما حملتْه الرياحُ

وآخرَ ما قاله البرق والرعد

في شفة البشر الواهة . .

١٥/ ١٢/ ١٩٦٧

مَديحُ ثدي

كانت شعيراتُ الزَّغَبْ
تظهرُ في الضوءِ وتختفي
كان تفتُّح المسام
يَنْشَعُ في اللفائِف .

* * *

كان احتدامُ اللون في الدائرة الصغيرة
عصفورةٌ تفتح في الشفاهْ
منقارَها الدافئ .
والعروقْ
ترقصُ في جنائن التكوير.

* * *

هذا انفتاحُ النبع في الضلوع
مرتعشٌ بالصوت والغبطة والدموع
يحمل في تيّاره سنبلةَ الأسطورة المليئة
بالشِّعرِ والنبوءة
والخلْق والمشيئة

والهدْم والرحيلِ في أزمنة الغبار. .

* * *

تهدَّمَتْ أبنيةُ المسكونة
وانطفأتْ مسرجةُ المدينة
وأطبقتْ عباءةُ الظلام
والزمنُ الطالعُ في سنبلة الأحلام
بالخيل والغيمة والأشعار
منتظرٌ في جوفه الأبيض كي يجيء
مفتتحًا شعائرَ النهار. .

٢١/ ٩/ ١٩٦٧

كتاب الأرض والدم

* صرخــة إهــداء *

(إلى ولديَّ الطالعين من دمي عنقودَيْن من
عناقيد الحلم وشجاعة انتظار الشمس :
إلى ناهد ولؤيّ) .

* مفتتَحٌ صغيـــر *

كنتُ أظن أن شيئا قد حدث ، أو يجب أن يحدث ، بعد أن جاء الشبحُ الذي لم يره أحد ـ هكذا قال لنا من نجا ـ وترك على وجه العناصر المتخالطة بقعةً هائلةً من الدم أخذت تتّسع شيئا فشيئا ، حتى أنها لم تترك دارًا إلا وأصابتْ بابَها بعلامة ، ولم تترك يدًا إلا وعلى أصابعها شارةُ اتهام .

كنت أظن أن شيئا يحدث ؛ ولكن الوقوف على الحافّة لا يكون بديلا عن الوقوع في الهاوية . . وها أنتِ . . أيتها الساعات الدامية . . ما زلتِ مقتطعةً من سياق الزمن . . لم تدخلي في نسيج الأيام .

كنت أظن أن شيئا كليا يولد من المزق التي تهرَّأت، وأن الساعات الدامية ستطلق من الأفق الشرقي قمرَ اليتيم والفجيعة مؤذنا ببدء سخونة الأرحام وطقوس الولادة الكونية.

ولكنك أيها الشبح العظيمُ، أيها القاتل الرحيمُ، أيها المطهِّر الرجيم، وقفتَ عند الحدود المغلقة، لم تدخل البيوت بعد..

تراجعتَ سريعًا بعد أن أشرْتَ بأصبع الاتهام في الجهات الأربع، وقام سورُ الصمت بينك وبين الزحام.

أعرف أن شيئا يحدث.. حتى تظل الساعاتُ الداميةُ بعيدةً عن سياق الزمن، وحتى يُعطى اسمٌ آخر لبقعة الدم.

ليست المسألة أن نرقِّع الثوب، المسألة أن نستبدل الجسد.. شهدنا ونشهد..

١٩٦٩/١١/٢٢

بوّابـــة طليـــطلة

- ١ -

لبستُ قناعَ التنكّر عَلّي أسوح بليل المدينة

وأدخل ـ عبر شوارعها وظلام أزقتهاـ

فأخوّض في جوّ أحلامها ورؤاها الدفينة

(وعلَّ رجال الدرك

يقولون في الصبح : كان هنا

وتفقَّدنا واحدًا واحدًا ، وتفقَّد صمتَ الرعية ،

أحزانَها ومخاوفَها ، وتفقَّد قُفْلَ السكينة

وأبوابَها الخشبية)

وقابلني دركيٌّ ـ رأى كلَّ من جلسوا فوق عرش البلاد

وعلّق في طوْقه المتهدِّل مفتاحَ ميراثهم

وأقنعةَ الأوجه الملكية ـ

أشار . فأسقط عني قناعي

ـ: هنا الباب . . هل جئتَ بالقفل حتي يتمَّ العماد!
فكلُّ مليكٍ له عُرْوَةٌ في الرتاج
إذا وضع القفل فيها تنفّس أسلافُه واستراحوا
وقدَّسه وارثوه . .

ـ ٢ ـ

تخذتُ ـ من اليأس ـ سور المدينة
كتابي وحجي
قرأت تواريخها ورؤاها وأورادها ونوافلَ
أعيادِها البربرية
وقَلَّبْتُ في كنزها المتجدِّد من عربات النفاية
وميراثَها المتعفِّنَ بين المزابلِ . . كانت عصارةُ
أحزانها وخطاها بقايا طعام رخيصٍ
وعَفْنٍ مواليدها ومداميك من غائطٍ
ورأيتُ القشور وقد مُضغَتْ مرتين وحطتْ
حروفُ التهجِّي ذبابًا يطنُّ بأسماء أبنائها أجمعين . .

ـ ٣ ـ

يقول ليَ الدركيُّ :

«وكان أبوك الملك

يجيءُ ويسألني عن جذور القبيلة

وأفْرع أنسابها واختلاط دماها

فأحكي وأحكي

ويسألني عن طقوس الرّتاج وباب المدينة

فأبكي وأبكي

وأصمت»

ـ ٤ ـ

زرعت على القبر زيتونةً (في رؤى النوم)
مَدَّتْ ظلال الفروع
وأثقلها الزهرُ حتى انْحنَتْ . .
كنت من فرحتي أتشقَّقُ
كالظمي من قهقهات الدموع
وتطلع من جسدي غابةٌ وتشق السنابل
مَطالِعَها في كتاب الضلوع
رأيت الغمامةَ حبلى . . ومن خلل الماء فيها
رأيتُ شرارة برقٍ تطير بزيتونة الحلم ،
تَهْوي بأفرعها الموقدة ،
تشق الحجارةَ عن ساكني القبر،
أمي تجر بقايا الكفن
ويصعد هيكلها الشبحيُّ وتصرخ جوعًا لكسرة خبزٍ
وحفنة ماء

وتصرخ . . تصرخ . . يرفعني صوتُها من غواشي المنام
فيسقط عني قناعي
وأدخل مملكة الجوع . .
تاجي على الرأس، والصولجانُ رتاجٌ وقفلٌ
صديء . .

- ٥ -

وفي ظلمة الليل . . كنتُ أرى الحاشية
تهمهم في الردهات الوسيعة
وتنسج من غمغمات الفجيعة
صدًى يتهدَّل فوقي ببرق الوساوس
وخوف العدوِّ وخوف الصديق .
فجئتُ وحيدًا . . وناديتُ من جلسوا فوق عرش المدينة
أردُّ لهم كلَّ ما أوْرثوني
وحطمتُ بابَ الطقوس القديمةِ ،
خَلَّعْتُ أقفال تتْويجِهم ودخلتُ البناءَ العتيق
أقلِّب عينيَّ بين التصاوير . .
كانت وجوهُ الملوكِ
بكائيةً تتتابع (هذا أنا يا ملوكَ الفجيعة
أردّ لكم نسبي) وأرى عند خط التقاطع

تصاويرَ وجهي المطارَد

وسيْل الجيوش الغريبة

يُسيِّج مملكتي المستحمةَ بالدمع والدم،

كانت سطورُ النبوءة

عناقيدَ من صرخات القبيلة تحت السنابك . .

(هنا أعين الراحلين

مُفَتَّحَةٌ، والأكفُّ على مقبض السيف

معروقةٌ يابسة

وورِدُ الجراح يجف ويلتف تحت نسيج العناكب

فيا أوَّلَ الداخلين

تأمَّلْ ملامحَ وجهِكَ فوق الحوائط

وجَهِّزْ خيولك

لترحل - قبل اندفاق الجيوش الغريبة -

لمنفاك بين الزمان وبين المكان . .)

أراهم يجيئون تاجًا من الشوك حول المدينة

يضيق فَتَنْفِرُ من ناظريْها الدماء
ويصْطبغ الخبزُ والكلماتُ الحزينة
أراهم رؤًى في العيون النواعس
وهمهمةً في عيون الأخلاّء تجْدِلُ باقاتِ موتي .

(صفوفُ السبايا تدور
ويلمع ضوءُ الميادين ، تُفْرِخُ في واجهات المتاجر
طيورُ الإشاعات . .
يا أول الداخلين
تأمّلْ رسومَ الخرائط
وأرغفةَ الأرض إذْ تتآكلُ تحت السيوف
ويا أول الداخلين
تَقَبَّلْ مصيركْ
وجَهِّزْ خيولك
وزُوّادةَ السفر المتجدِّدِ . . لا أنت حيٌّ
ولا أنت تدخل مملكةَ الميتين . .)

وفوق يدي . . كان وشْمُ الفراشة
وجنِّيّةِ البحر والزهرة الطالعة
بكاءً تجمَّدْ . .

١٩٧٠/١١/١

إيقــاعُ الغـــرق

١ ـ غزالةُ الشطوط البعيدة:

رأيتُها حبلى
في وجهها من كَلَفِ الحمل علامةٌ، وساعة
يقفز عقرباها الأحمران كلما تكوَّرَتْ جمجمةُ الجنين
وصدرُها المثْقَلُ في حمائل الرضاعة
ترْشح منه الحلْمةُ المقطوعة
ترسم فوق البطن زهرةً وخوذةً وعربة
وفرسًا بلا لجام . .

أراكِ يا غزالةً برية
طريدةً رشيقةً رشاقةَ الموتِ،
وعذبةً كالليلة الصيفية

عذابُك الدفينُ ـ كالأغنية المنسية ـ
لما يزَلْ مكثفًا وحاضرًا . .
أراك تحت الغيمة المشوية
في ملتقى البحرين تغسلين جرحَك النازفَ
بالملح وبالزَّبد
تُراوغين الأعين الشاخصةَ المفرَّغة
وتعبرين النهر خلسةً وتدخلين وطن الأشجار
وتصبحين شجرة . .

٢ـ الأرض القديمة :

رأيتُها في صكوك الإرث مكتوبة
سِفْرًا من الإنسان والإزميل والحجرِ .
رأيتُها من شقوق الصيف مَسكوبة
غاباتِ أيدٍ ترغْرَعُ في دم الشجرِ
وأوْجُهًا من حميم الطمي مجلوبة
منسوجةً بالفروع الخُضر والثمر
وأعظمًا غالبتْ أكفانَها ، انقلبتْ
فراشةً حمراءَ مخضوبة
بالنارِ والغيم والرَّهَجِ الدوَّارِ في السفرِ . .

* * *

كانت صكوكُ الإرث مختومة

بخاتمٍ ملتهبٍ وأحرفٍ مشوية
وكان في أطرافها من سلة الأيام
زخرفةٌ كوفية
وأثرُ القوافل المُغبَّرةِ الأعلام
والزحمة التي تشبه عش البومة
وطُرَّةُ السياف والإمام
والصرخةُ المكتومة

* * *

حين تقصَّفَتْ أصابعي ويبستْ مفاصلُ الراحلةِ الملعونة
وقفْتُ في الصحراء تحت الشمس
أنتظر الطغْراءَ والأوامرَ الميمونة
كي أستطيع الهمس
وقفت في الصحراء واجمًا مُقَنَّعًا أنظر جلْدَ الأرض
مسْتَبْدَلاً منتسخًا مرقَّعا
وكلما ثَبَّتَت الشمسُ رماحَها الحمراء في جمجمتي
قطعتُ رحلة الوقوف بالقراءة . .

(أُخرِجُ من غيابة العباءة
صحائفَ الإرث المقدسة
وكلما تخرَّمَتْ سطورُها بالأرضة
تهدَّمَتْ مدينةٌ على رءوس ساكنيها
أو سقطت تحت نعال الروم قلعةٌ أو مملكة
أو زحفتْ حدودُنا وسَوَّرَتْ مواطئَ الأقدام . .)

لو أن هذي الشجرة
لم تجْدل الجذورَ للأعماق
لو أنها لم تطبخ الضوءَ بجوفها وتغزل الأوراق
لما تملَّكتْ شبرًا على مملكة الصعود والهبوط
تمتدُّ فيه أو تطرح ظلَّها المنقوش بالزَّهَرْ . .

أراك يا غزالةً برية
تنتظرينني خلال كل جبلٍ بجوف كلِّ شجرة
وتركضين في الغمامة المسافرة .

لو نبتتْ أصابعي المقصوفة

لكنتِ ـ يا غزالتي البرية ـ

صبيةً فتيَّة

تمنحني كعكتَها المقدسة

وشالَها المهْدَوْدِبَ المنقوطَ بالسنابل الحمراء . .

٣ ـ أزهار حجرية:

في الغرفة الموحشة المخيفة

كان القنوطُ وتدًا،

والليل والنهار

كانا قميصين معلَّقَيْن فوقه

(إذا لبستُ سُتْرَةَ النهار

صرتُ قناعًا ضاحكًا مبتئسا،

إذا لبستُ سترةَ الليل . . أحالني الليل الطويل

مسمعا ومسبحة

وحينما يندلق الكلامُ من قارورة التثاؤب الملول

أسقط في فراش الشوك

حاملاً على يدي جمجمتي المخربّة)

بين قميص الليل والنهار
رأيتها فراشةً مغتربة
حطت على قنينة العطر تودُّ لو تفتحها
ومَسَّحَتْ جناحها
على بقايا علبة التجميل

* * *

عاسلةُ النحل المعذبة
طاردها في أفرع المشمش والنوّار
زهرٌ من المبيد الحشريِّ والغبار.

* * *

كانت على زجاج النافذة
منْهومةً للشم والسمع وللإبصار
ودخلتْ من فرجةٍ ضيقةٍ، حطتْ عليكِ
يا والدتي الثرثارة البكماء

وعشَّشتْ في شعركِ المصبوغ بالحنّاء

وحوَّمتْ على وجهك مرةً فمرةً

فلم تجدْ عليه غيرَ عطركِ الرخيص

وغير مسحوق الطباشير وأحمر الشفاه

فحومت على أصيص الزَّهَرِ المرسوم بالجِصِّ على الجدار

تشْتار من ألوانها الحوشية

ذكرى طلوع الشمس في جيوب العطر واللقاح . .

٤ ـ أرض الرؤيا وشهوة الغرق:

حين رأيت الأرض ـ في الرؤيا ـ مسافرًا
يبحث عن فسقية
يغسل فيها عينه الرَّمْداءَ بالرمل وجرحَه النّاغِرَ في ايدين
يبحث عن خانٍ يبيت فيه ليلةً،
يسأل عن قافلة منسية
يطرح في حُدائها الخوفَ . . يصير جملاً منفقئَ العينين
أو وتدًا في خيمة القبيلة
تدقه في مأتمٍ أو عرس
أو أثرًا تطمسه الرياحُ أو رحًى تسكب فيها الشمس
سنابلَ الموتى وحنطةَ الأحياء
أو حفرةً ينضح منها الماء

قلتُ له : لا تبتئسْ . . فالليلُ في المدينة
كلبٌ مجوَّعٌ يبحث عن عشاء .

* * *

رأيتُها ـ فيما يرى النائمُ ـ تاجرًا
يحمل في صُرَّته المقطوعة
تَمْرَ الفصول الأربعة
رأيتُه يدور في مفاوز المسكون والمهجور
محتدمَ العينين بالصهد ممزقَ الثياب بالمطر
حتى إذا جاء المدينة المرقَّعة
ـ بالضوء والظل ولافتات الموت والحياة ـ
انشقَّت الظلمةُ والستائرُ المرفوعة
عن وجهها الطالع من شجيرة القمر.

قالت له : من أنت؟!
قال لها : نواةٌ صلبةٌ ناشفةٌ في تَمْرَة الأيام
قالت له : ماذا يُلين قشرتَك

ويضرب السكر فيها والعناصرَ الأرضيةَ الوهّابة؟!
قال لها: أن أبدأ السفر
بين عروق القلب والنهدين
وأن تعلِّميني لعبةَ السيفِ وشهوةَ الغرق.

* * *

رأيتُه - ملءَ خلايا جسدي -
مشتعلاً من شهوة لليأس والنسيان
مَرَّغَ وجهه بصدرها العريان
لكنه في لحظة اسْتراق السمع للجسد
رأى احتدام اللون في دوائر الثديين
حديقةً باكيةً وشجرًا محمَّلاً..
رأى رصاصتين
تنطلقان بالضحك وبالبكاء
تنغرسان في اللحم وتثقبان خيمة الهواء
وتأخذانه في السفر الليليِّ والضياع تحت الشمس.

قال لها : يا طفلتي القديمة
فلتعصبي رأسي بشالك الأسود
(كان يظنه أبيض
مزخرفًا بالبقع الحمراء)
ولتمنحيني كسرةً مغموسةً بالماء
وانتظري تمام دورة الأشياء
حتى أعود بالجراد الذهبيِّ حينما يطلع
من طقوس البيع والشراء . .

٥ ـ غناء على الأبواب المائة :

كان أبو الهول مغنيًا في طيبة القديمة
في صوته تنفلق الأحجار
عن مرِح الأسماك في عمائق النهر،
وكانت العناصرُ المقدسة
إلهةً مليئةَ الثديين بالعشب وبالأشجار
أو صرخةً شاهدةً على المرابع المدنسة
وكانت العنقاء
رفيقةَ الليل التي تُبحر من تَجَسُّداتها مراكبُ
الشمس وتسقط الأمطار
ومن شرارة احتراقها لفائفُ البرديِّ والدواة
والقلمُ المشقوق والأشعار. .

* * *

غنيتُ في أزمنة القصور والخرائب
ودقَّني الحراسُ وتدًّا في وَخَمِ الزرائب
أنظر لانعكاس الأنجم البراقة
في أعين الأبقار
أدخل في فسفورها مستدفئًا ، أحلم بالخروج
في لبن الضّروع .

وأنتِ . . يا رفيقتي العنقاء
ما بين عينيك وبين اللهب الليلي
ينسج عنكبوت اليأس قمرا من ماء .
ما بين صوتي ـ يا رفيقة القصائد المحرمة ـ
وبين أذنيك . . مسافة الصحراء .

* * *

في وخم الزرائب الليلية
حلمتُ أني عشبةٌ طريَّة
تعبر بين الفرث والدماء

عللكِ ـ يا أصابع العنقاء ـ
تحوّلينها إيماضةً غضبي
في الأعينَ السوداء
(لو كانت الأعين تأتي مثل أعين الآباء
وانقطع الزنا)
وتمنحينني قداسةَ الغناء في مدينتي
وزهرَها الطالعَ في أبوابها المائة .

* * *

بعد انقطاع الطمث
لَفَقْتُه لفْقَ الثياب
دخلتُ كلَّ حفرةٍ دخلتُ كلَّ رَمْس
جَمَّعْتهُ من كَسِر العظم ورقع الإهاب
غسلته تحت خيوط الشمس
وهبته من بركات الرب في التراب
ثريدةً للعرس
وضعتُ في لسانه لساني

من يره رآني
ومن رأى طقوسه الليلية
في ساعة العناق والأغاني
رأى انتفاضة الأسلاف في العينين
والزمنَ المقبل في اليدين
ياليتني دعوتُه ياليته دعاني
قبل انفراطنا خليةً خلية
لا لحمُه من جسدي ولا دمي مشتعلٌ بالبذرة الخفية.

* * *

أدور في أبوابك الموصَدَةِ المفتوحة
يا طيبة المقدسة
أدخل في أعتابك الطاهرة المدنَّسة
(فلتعطني يا قمر الأمومة
بصيرةَ الهدم ومهرةَ الدماء
كي أمنح الجوعى)
أسمع في الصمت وفي الصخب

أصواتك المذبوحة
أصرخ : يا رفيقتي العنقاء
فترجع الأصداء
مضفورةً تحت رياح الليل منفًى ضيقًا ووطنًا
أدخله مطاردًا .
(فلتعطني يا قمر الأمومة
بصيرة الهدم ومهرة الدماء
كي أمنح الجوعى)

* * *

يا مهرة الدماء
انطلقي من قفص الضلوع
واغتسلي في عطش الجموع
يا مهرة من عطش الجموع . .

٦ـ مهرة الألوان المتداخلة:

صوت :

كانت مهرتُنا الحمراءْ

تغسلها أعْطيةُ الدمع الليلية .

كانت مهرتنا الخضراء

أعشابًا برية

أمطرها غيمُ السنوات المشوية

فانشقَّ اللونُ الأخضرُ لونين .

صدى :

مهرتنا الحمراء

حلمٌ يرقص في أقبية الدم

مهرتنا الخضراء
رسمٌ مصْفَرٌّ في كتب الصحراء
زبدٌ يتكسر فوق مياه زرقاء .

صوت وصدى :

مهرتُنا الحمراء الخضراء
صرخةُ نارٍ شعرية
ما بين الماء المالح والصحراء
مهرتنا الخضراء الحمراء
مهرتنا الحمراء الخضراء . .

١٩٧٠

عن الحسن بن الهيثم

١ـ عذاب الأحجار:

كل صخرة
دَوَّرَتْ قشرتَها نارُ الكهوف
عجنتْ طينتَها الشمسُ ولفَّتْها خيوطُ المطرة
دحرجتْها عجلاتُ الزمن المنكسرة
فهي أرْحاءٌ وأرحامُ رغيف
وهي وجه ناعمٌ في مدخل البيت الأليف
وهي للأرض إناءٌ أثريٌّ ولقلبي مَجْمَرة
وهي لي موْطئٌ ميلادي وسقفُ المقبرة
وأنا . . تنظر عيني المبصرة
صمتَها يقْطر بالدمع وبالرمل خلال الطرقات المقفرة
أسمع الصرخة في قشرتها تحت الزحام

علها تصبح نسْغًا في عروق الشجرة
أسمع الشارع يبكي في انتظار الطيبين السحرة
وأنا أهرب من صوت لصوت من بكاء لبكاء
ودَّ قلبي لو تحوّلتُ لماء
وعروقي اشتعلتْ . . في كل قطرة
شهوةُ المعجزة المنتظَرة
وانخطافٌ بانفلاق الضوء لونا بعد لون . .

٢ـ الصوت المحاصر:

حينما قابلني النهرُ سقاني
بانفتاحات ذراعيه اغترابًا وأمومة
وكساني إذْ رآني عاريًا ـ حتى من اللحم ـ وأعطاني
عطايا الزهَرات الدموية
وحباني بالهبات المحرقة
قال لي:
أركض . . لا عين تراني
تتلوّى صرختي تحت خطايَ المغْرَقَة
آه . . من يُسْمِعني صوتي،
ومن يسكب في حلقي دموعي !!

دمعتي تُفلت من عيني جزيرة
أو زروعًا وجسورًا وقناطر.
قال لي النهرُ:
أنا أفتح صدري للمدينة
وأناديها إلى ليلة رقص وتخاصر
وأغنيها . . ولكن المدينة
لم تعد تسمع صوتي أو تراني . .

قلت للنهر:
اتخذْني لك فرشًا ووسادة
واتخذني ـ حينما تجرحك الشمس ـ ضمادة
ثم علِّمني طقوسَ السر، علمني تراتيل العبادة
قلت للنهر، ولكن المدينة
حاصرت صوتي حوارا وصدي . .

٣- حـــــلـم :

أحلم الليلةَ أني جسدٌ يطفو على النهر غريقا
أحلم الليلة أني أتحجَّرْ
أنني أدخل في القاع وأمتدُّ طريقا
أُوقِفُ النهرَ إلى سبع سنين
علني أسمع في قلب المدينة
صرخات الميتين
علَّها تصهل في أغنية الشعب الحزينة
فرسُ القحط إلى سبع سنين
علني أنظر في رأس المدينة
شبح النهر ظلالاً ودموعًا في العيون
علَّنا نعرف ميراثك يا نهرُ إلى سبع سنين . .

٤ـ مناجَياتٌ إلى النهر:

ـ ١ ـ

أيها النهر انتظرني
واتخذْ جمجمتي عشا ، وخذ من جسدي الحيِّ دفاتر
خذ يدي واكتبْ بها في الرمل شكواك القديمة
خذ لساني بومةً تنعب في ليل الهزيمة
خذ دمي حبرًا وأعراقي دواة وانتشلني
من سهوب اليأس واطرحني على رجليك رغوة . .

ـ ٢ ـ

«كلُّ إحساسٍ أليم»
وانفتاحٌ جارحٌ في عصب القلب أمام الغزوات
قطرةٌ واحدةٌ منك دخولٌ في الجحيم
طعمك الذائبُ نارٌ في لساني
صوتك الضائع رمح حجريٌّ في كياني
وارتعاشاتُك تفجيرٌ رهيب في الخلايا
وانعكاساتك في العين شموسٌ دموية
والردى يرقص في طميك . . يا نهري الكظيم

- ٣ -

وجهكَ المكتئب الضاحكُ يجري في الخلاء

لاعبًا لعبته الكبرى : ظهورٌ واختفاء

لاعنًا صمتَ الخيانة

باكيًا ما في عباءات الكهانة

من رضى الطينة أو من صلف المقْتِ ورعب الخيلاء

رافضًا ما يدعيه الشعراء

باعتصار الدمعة المسْتَكْرَهَة

بعد ما جفَّ الدمُ الضائعُ في ليل الجريمة . .

ـ ٤ ـ

أيها النهر. . تعَّرفْتُ عليك
وتحسستُكَ . . أحزانُك في الرأس ضفائر
وانتظاراتُك شوكٌ طالع في قدميك
وتعرفت على وجهي الذي يغرق منحوتًا ومهدومَ
الهيولى في يديك
وتعرفت على أغنية الشهوة والخلق البدائيِّ
وأحلام السنين المقبلة
غمغمات لم تزل صامتة في شفتيك . .

- ٥ -

أيها النهر. . تكلم عن طقوس الفيضان
بُحْ بأسرارك لي حتى أرى قبل الأوان
وجهك الغاضبَ ينشقُّ عموديا على
أرض الجراحات القديمة
لأرى جسمك منصوبًا وعريانًا كرمح
مرحًا كالنار إذ تأكل أخشاب السفينة
ورقيقًا لينا كالسيف، مكتومَ الخطى
مثل الفجاءات الدفينة
وتكلم عن طقوس الطفو إذ تخلع جذْر الكائنات
لأرى قبل الأوان
ماء الواقف يمشي ثم يمشي. .

٥ـ تصادُمُ أقدار:

الحاكم بأمر الله :

ها أنا كل مساء

أتمشّى في سرير القمر الأسود،

أجتازُ المدينة

كل باب فيه صوتٌ ضارع من «برْجوان»

يتشكّى موتَه النذلَ الجبان

وأنا أضحك في ليل المقطم

والصدى يرتد خفّاشًا على وجهي الحزين .

حينما أرجع للقصر على ظهر الأتان

أجد الأرض دماءً تتوجع

أجد الصمت مليئا بالعيون
فأنادي صوتَكَ الطيبَ يا داعي الدعاة
كي أرى موطئ أقدامي إلى النوم . .
وفي النوم أراه
قمرًا يحمل طفلاً ثم يرميه بفسقية ماء ودماء .

داعي الدعاة :
سيدي . . حيث تَمَشَّتْ قدماك
صارت الأرض سماءً ، والنجوم
وقعتْ بعض حصًى ، والفلكُ الدائرُ جُبَّة
أنت في طينة هذا العالم الفاسد حَبَّة
حينما روَّعك الشر على الأرض أتيت
لابسًا خرقةَ إنسانٍ حزين
آخذًا حاشيةَ السبع الطِّباق
جاعلاً منها سراجًا أو عباءة
سيدي . . تحمل في صدرك آلافَ المصابيح المضاءة

فانتظرْ حتى ترى كل الرجال
عَفَّروا الأوجُهَ في موْطئِ رجليك، أقاموا
لك ميزان القلوب
انتظر حتى ترى العالم من خشيته منك يذوب.

الحاكم:
هذه الأرض اللعينة
بعد أن عَلَّقْتُ في أبوابها القفلَ وأحكمتُ الرتاج
وانتظرتُ الزمن الصارخَ أن يصبح صمتًا وسكينة
علني أسمع صوتي المتفرِّد
علني أنسى وجوهَ البشرِ الفانين حولي
وأرى وجهي الحزين
في مرايا الرطب واليابس وجهًا واحدًا لا يتغير
غير أن الأرض حبلى بالشقوق
كل شق قبضةٌ غاضبةٌ أو حنجرة
وأرى.. حتى جذورَ الشجرة

أوجهًا تضحك مني .

الداعي :

سيدي . . أنت إلهٌ مغترب

بين شعب كل من فيه قميءٌ ونباتٌ متطفل

وأنا أنفخُ من وحيك فيهم

آية من بعد آية

فأراهم يسجدون

بين أسنانهم الخوفُ لجامٌ حجريٌّ ومقاوِد

ثم يمضون فرادى ، يلتقون

فإذا هم يضحكون

ويحيلون الدم النازف والموتى حكاية

والمآسي نكتةً ضاحكةً والرعبَ خيلاً من

خيول الثرثرة

وأنا أنظر زيفَ الشعراء

كلما ضجّوا تدلَّوْا في طريق المجزرة

فانتظر حتى تراهم يسكتون
وتكلمْ كلْمةً مقتدرة
فإذا هم حول أبوابك يستعطونَك اللقمةَ ،
يبنون من الشعر توابيتًا ومن
زيف القوافي مقبرة
وانتظر حتى ترى الشعب المخادع
كلما أغرق في الضحْك تدلى رأسه الفارغُ بين الكتفين
وترى الأرض اللعينة
فرغتْ من ساكنيها .

«يسمعان النهر يبكي من بعيد»

الحاكم :
ما انتظاري وأنا أسمع هذا النهرَ يبكي ويصيح
صوتهُ الغاضبُ مسمومٌ ومسنونٌ فصيح
بعد أن أوقفته بين الصحارى

فاقد الرأس ومقطوع اللسان
فإذا النهر الجبان
يحفر الطينةَ ـ من تحتٍ لتحتٍ ـ حنجرة
يجعل الأشجار صوتًا طالعًا
والسواقي من صدى الصوت تنوح
والرياحَ الخُرْسَ للصوت المغني قنطرة ! !
ما انتظاري وأنا أسمع في ليل الصحارى
رملَها الأسودَ يهتز مخاضًا لأغانيه الكئيبة
كل شيء صامتٍ صار كتيبة
ترفع البيرق في حفل انتحاري ! !

«ينزلان ويسيران حتى النهر، يريان شبحا
جالسا في الظلام، يقتربان منه»

الداعي :
أنت . . قَبِّلْ هذه الأرضَ خضوعا

عَفِّر الجبهة ذلاً وخشوعا

وانطق الآن ، وقل من أنت ، من فَتَّحَ

أبواب المدينة

في دجى الليل وفي جيبيَ مفتاحُ الظلام ! !

الحسن بن الهيثم :

سيدي . . عفوا . . فقد جئت لكي أسمع هذا

النهر في الليل يغني .

الحاكم :

هو يبكي .

الحسن :

هذه الطينةُ موّالٌ مُجَمَّدْ

فهو يبكي ليغني

وأنا أعرف ما كان وما سوف يكون

الحاكم:

أيها الضيف . . انتصبْ . . قل لي . . أتدري لغة
النهر؟!

الحسن:

أجل . . أعرف ما ينطقه الماءُ وما تكتمه الأرض
الحزينة

والأغاني المطفأة

والرياح المرجأة

وأصمُّ الأذْنَ عما هو كائن

وأرى في كل شيء قائمٍ غربةَ ما سوف يكون . .

٦ـ خيانةُ النهر:

أيها النهر الذي كنتُ أراه

حينما أنعس أو أصحو وفي لحظة ضحْكي وبكائي

أيها النهر الصديق

كنت أطويك عميقًا ودفينًا في دمي،

كنت أناديك إذا كنتُ سجينًا

فأرى بوابة العالم تُفتح

وأناجيك إذا كنت حزينًا

فأرى الطينة تفرح

كنتَ ـ ما بيني وبين العالم الرحب ـ جسورًا وقناطر

ورغيفًا يجمع الأرض على ليلة رقص وتخاصر

أيها النهر الأبُ الأمُّ الصديق
جسدي الآن غريق
ودمي ليلةٌ رعبٍ وحريق
وأرى خنجرك المرهفَ يحتزُّ لساني . .

* * *

كان قلبي جمرةً في طميك الحيِّ ،
وكانت أغنياتي
شجرا يطلع في الليل وعنقودًا على باب اليتامى الجائعين
رأسُك المقطوع قد خبأتُه بين الضلوع
فغسلتُ الشفتين
في دمي ، أفرغتُ روحي في شقوق الحنجرة
ووضعت الرأس بين الكتفين
وانتظرت العام بعد العام أن تبدأ نسْجَ الأغنيات
الطائرة . .

* * *

بعدما أدركني وجه الوجودِ المتحول
قلتُ إن الميتَ الباردَ يأتي في وقود الصاعقة
قلت إن الأخرس الصامت يأتي في الرياح الزاعقة
قلت «إن الحق واحد»
وجهه يلمع في الخُلْفِ ويأتي في التقابل
قلت إن الأيسَ مدفونٌ بقلب الليْس،
والنهرَ سيأتي في الظمأ. .

* * *

قلتُ إن الأرض حبلى وعقيم
أيها النهر الكظيم
فانتظرتُ الطحلبَ الأخضرَ من قلب الرميم
وانتظرتُ الصوت أن يطلع في صدرك
مسكوبًا من الريح ومن قلب الجوامد
ومن النيران
لكنك لم تنطق وأبقَيْتَ دمي في ظلمةِ السجن
رهينة.

* * *

أيها النهر الخئون

أنا بين الرمح والحائط منصوبٌ مقيَّد

جائعٌ منك إلى كسرةِ طميٍ وأمومة

ظاميءٌ منك إليك

ربما أقوى على الحلم الرهيب المتجدد

بانفتاح اليأس والأرض القديمة

أو فراري من ظلام السجن مستورًا على

وجهي قناعٌ من جنون . .

٧ـ يوميات رجل يدعي الجنون:

ـ ١ ـ

هذه الأرض التي كانت فراري وانتظاري
بين ثدييْها مشتْ شمسُ النهار
خبزتْ من صهدها قمحًا وأزهار انتحار
لبستْ برقعَها الأسودَ
(من خوفٍ وعارٍ وانكسار)
دخلتْ وانكمشت في عقر داري
ثم صارت جثة ترقد ما بين جدارٍ وجدارِ . .

- ٢ -

كان في الحائط شقٌّ مستطيل
أخذ الضوءُ الهزيل
ظلَّ رأسي مستضاءً وظليل
دخل الشقَّ به . . حتى سمعتُ الطقْطقة
في عظام الرأس إذْ يُحشر ظلاّ في الخطوط الضيقة

كانت الليلةُ مسماراً بلحمي والثواني مطرقة
وأنا أصرخ : من يُطلق رأسي من جدار المشنقة ! !

-٣-

كلما شاغلتُ نفسي لأنام
(بانقسامي رجلاً طفلاً وأمًّا ويتامى
وبعَدِّ الخشب الأسود في السقف
وباستسقاء هذا المنور المعتم شمسًا وغماما)
طلعتْ في القلب أزهارُ الفطام
بتويْجات التشهيِّ وبأشواك السنين الضائعة .

كلما شاغلتُ نفسي لأنام
خفتُ أن يسمعني الحارسُ أحلم
برغيف الصاعقة .

- ٤ -

هذه الشمس عيون بربرية
كلما سامَتَها ثقبٌ صغير
أسقطتْ فوق اليدين
ظل رأسي .

خفت أن يصبح ضوءُ الشمس سيفًا للأمير
فأنا أحمل في كفيَّ ظل الجمجمة .

ـ ٥ ـ

كلما دقت يدُ الظلمة بابي
خفت أن يطلع من جوف كتابي
وجه أحبابي وأصواتُ العناقيد التي
تصرخ في قلب الخوابي .

كلما دقت يد الظلمة بابي
خفت أن تطلع من جوف التراب
حمحماتٌ من خيول الجوع أو رعد الظمأ .

كلما دقت يد الحارس بابي
خفت أن يطلقني تحت النهار
فأرى فوق الصواري
جسد النهر القتيل
حاجزاً بيني وبين الحلم والشمس التي
أخلقها مني شعاعا فشعاعا .

ـ٦ـ

أسمع النهر يغني باكيا :

(أنظر في الطمي اللعين

جثةً تبحث عن طعنة سيفٍ غاضب أو مقبرة

وأرى تحت الغيوم الطائرة

كتبَ البدْءِ وعلمَ الآخرة)

-٧-

-: أيها الحارسُ

(يا إبن اللئيمة

كدت أن أخلع عن وجهي القناع)

قل لمولاك لكي يطلقني قبل الشتاء

ربما أطفأت الريح جحيماً في الدماء

قل له أن يفتح السقف وأن يمنحني

سنبلةً تطلع من نهد القمر

قل له: يمتلئ الرأس حنيناً وكآبة

فاقطع الرأس وأدرِجْه بتابوت السحابة

(عَلني أصرخ في الرعد الدفين المتكلم

وأرى حنجرتي تسقط في الأرض حريقًا

أو تواشيح دماء)

١٢/١١/١٩٦٨

كتـــاب الســجن والمــواريث

- ١٩٦٨ -

١ ـ عذاباتٌ سرية:

أكلتُ ما يخبزه الأسفلت

في جوفه من حنطة التعذيب

وافترشتْ جوارحي حشيَّةٌ تملؤها بالمقت

الأوجُهُ المقلوبة

والأعين المثقوبة

وحينما انكفأتُ تحت الصمت

سمعت ما تقوله البيارق المرفوعة

والأرؤس المقطوعة . .

٢ـ المفـــاجـــأة :

بيني وبين الجدار
أبخرةُ الزنزانة
وفي فروع النهار
تفاحةٌ عريانة
وفي طريق الفرار
رصاصةٌ أو خيانة . .

٣- مقبـــرةُ الارتـــحال:

العالم مترٌ في مترين
والشمسُ اسودَّتْ . . حطَّتْ حجرًا في العينين
وأنا أصرخ في جسدي - التابوت
وأرى وجهي المربد
ملهوفا ينشع في حجر أسود
وأرى صوتي المرتد
كفنًا حول القلب وقيدًا في الرسغين . .

٤ـ تـاج الدمـــع:

قصيدتي مملكتي

والرقعةُ الضيقةُ المسوَّرة

بفُوَّهات الأعين ـ البنادق

مملكتي

لكنني ـ واليأسُ صوجان ـ

أحمل تاج الدمع فوق الرأس

وألبس العباءة المطرزة

بقصب الآلام والنمنمة الدامية المدوَّرة

والطرقُ التي تقاطعتْ واشتبهتْ

عرشي الذي لا يستقر في المكان . .

٥- حصـــار:

قد يصبح الإنسان - تحت جلده - جرادةً أو
عنكبوتًا أسودًا أو دودة
من حفرة لحفرة يقيم عرشه الفارغَ في المملكة المفقودة
لكنه يصيح
تحت النهار المسرع الخطى والريح
كي يرفع اليدين
وكي يشق عنه قشرة الجلد و يغسل العينين
بالقمر الجريح . .

٦ـ تحـــريــض:

ـ هل تسمعونني ـ ؟!

أصرخ تحت ماء الغُسل خائفًا في كفني:
لا تربطوا يديَّ لا تقيّدوا أقدامي
فربما أهرب في الظلام
ولا تقيموا مأتمي
فإنني المطلوب بالثأر لكل صرخة وقطرة من الدم . .

٧ـ انتظـــار

أتخشَّب في مقهى العالم
منتظرًا من يطعمني أو يسقيني
تغرسني اللحظةُ بعد اللحظة في خشب الكرسيّ
يسَّاقط فوقي صوتي المتجمِّدُ وذبابُ الأعين . .

أضحك في مقهى العالم
منتظرا من يهزمني أو أهزمه في معركة النرد
منتظرا أن ترحمني الأرقام
من ذكرى التركة . .

حين أدرتُ السير

وقفتْ وتصلَّبت الأقدام

والشارع كان يهرول من حولي جُذُرًا ورءوسًا

عائمةً في نهر الأجساد

والشمس تدلت ، ألقتْ شصَّ الصهد

واختطفتْها رأسًا رأسًا ، ألقتْها في

مقلاة الظل الممدود . .

٨ـ مملكةُ الصرخة:

أغني بليل الهزيمة
وأسمع رعبي وقلبي الممزّقَ من شهوة للفرار
وأنظر ضوء النهار
يمدّ أصابعه الباردة
ويهدم وجهي ومملكةَ الليل في ضربة واحدة
يبعثر ما جمعته يدي من حصاد الرؤى

(صيحةُ الديك عرشٌ ومملكةٌ وانتظار
وصوتٌ يبشرنا بالقيامة
وجثتنا في التوابيت والأرضُ نعشٌ
ودفترُ أعمالنا تتقلّب فيه الدما والجريمة

وأصواتُنا رعشة الإحتضار)

ويكتم في شفتي صرختي . .

آه يا صرختي . . ما تزالين يأسي وأرضي القديمة

ومملكتي المستباحة . .

٩ـ تداخُـــــــل:

أسمع صوت الماشين على الطرقات
وأنا أعراقٌ مرخية
أنفاسٌ واقفةٌ مطوية
جمجمةٌ فارغةٌ ولسان مبتور
ودماء تقْطر من خُفِّ الديجور.

أتذكر ما قلناه معًا
أتذكر طعم الكذب الأبيض والأحلام السوداء
وإيقاعَ الموال المقهور
والعشَّ الفارغَ والرمحَ المكسور
أتذكر شبحي الهاربَ حين تكسَّرَ منه

الرأسُ على قرميد السور.

حين يجيء الموت

هل يأخذني أم يشطرني نصفين

فأنا أسمع صوتي الضائع في الطرقات

وأرى الشمس المسودَّة تهوي في أيدي الأيام المرتدة

وأمدّ يديَّ إلى أهلي الأموات

نقتسم الدمعة والطعنات

فمتى يرحمني كفنُ الصمت،

يتركني تحت الأرض ويقطع كفي الممدودة

فيعشش في جمجمتي بُعد زمنيٌّ واحد!!

١٠ ـ هجرةٌ إلى الداخل: .

أيتها النخلةُ . . فَلْتميلي

ولْتسْمعيني مرةً . . وقولي

حكايةَ الإصغاء للشمس وللهواء

ولترفعي رأسي على يديك في الظلام

كي أعرف النوم على أسرَّة الخضرة في الأعالي

وأسمع الرياحَ في زواجها الليليِّ ،

وانسكابةَ العصارة

في زمن التلاقح الممتدّ بين طينة الخلق ومطر البكارة

ولترفعيني عاريا بعد انحدار الشمس عن مخدة الظهيرة

حتى أرى ظليَ ساقطًا ممرَّغا في الرمل والوحول

أو طائرًا يحاول الدخول

ـ عبر جدار الصمت والشوارع المحرَّمة ـ
إلى مدائن الإنسان والخرافة .

أيتها النخلة . . أطعميني وبدِّدي وحشتي المخيفة
بصوتك المرويِّ بالشمس وبالنقاء
وانتشلي من هذه المدائن ـ الصحراء
جمجمتي التي تملؤها صلصلة الحراب والسنابك . .

١١ـ وطــن آخـــر:

يقالُ . . في كل بحر جزيرةٌ أو سفينة

والشط عِرقٌ مليءٌ

بالأغنيات الحزينه

ما بين عينيْ «تحوتِ»

وبين شمس «أثينه»

قلبي غريقٌ تشهّى

شمسَ الرؤى والسكينه

وارتدَّ طفلاً صغيرًا

يبكي السنين الضنينه

يبكي فطامَ الأغاني

يبكي الرموز الدفينه .

في القلب جوعٌ رهيبٌ
والخبزُ رعبٌ وطينة .

يا شمس فلتطلعي لي
يوما بهذي المدينه
يا بحر هيِّئْ فراري
في الموت أو في السفينة . .

١٢ـ تــواطــــؤ:

كنتُ إذا رأيتُ نُدْبَةً على جسد

أو أثرًا ملتئمًا لجرح

تفجَّرتْ مشاركاتُ الرعشة الأليمة

في جسدي

لكنني ـ في زمن السخرة والحرائق ـ

قَبِلْتُ جيفةَ الأرض . . ومات في حنجرتي

الرفضُ والسؤال

وانفصمتْ عرى التداخل الحميم بين الفعل والإرادة . .

١٣ـ سقوطُ جسر الصرخة:

كان رغيفُ المسكونة
منتفخًا يطفو فوق الماء .

طلعتْ شمسٌ محزونة
هبطتْ صاعقةٌ سوداء
وتقوَّسَ تحت عمائرها المنصوبة ظَهْرُ الحوت
فتكسَّر وجه الدائرة المنتظمة
وتفتَّت وجه الأرض

حين تداخلت الأصوات
وتهاوى جسرُ الصرخة بين المتخم والجوعان

نسيتْ حنجرةُ الإنسان
سنبلةَ الكلمة .

سقط الغالبُ والمغلوب
وتعفَّنَ فوق الماء رغيفُ المسكونة

١٤ـ انكشـــاف:

أتيتُ تحت الزمن المنافق
والسيفُ في منطقتي والشمسُ في
نعش من البيارق
غسلتُ رجلي في دم الصبايا
وجئت من معركتي الخاسرة الخفية
أحلم بالقناع والتقية
أنام في أروقة التكايا
تطعمني جريمتي، يقيمني الرب على الرعية
ممتلئا بما ادَّعيتُه من طيب النوايا
وخائفا أن تولد الشمس فتكشف النعشَ
الذي تحمله خطايا . .

١٥ـ سقــوط:

حين تفكّكَتْ أصابعي ونسيتْ

ملامسات الطين والحجارة

وضربةَ الإزميل، والحفْرَ الذي يترك في المغارة

ملامحي وصرختي الفوارة

بالشعر وانتظار الرعدة الموارة

سقطت في المملكة المنهارة . .

١٦ـ موسـيقى الداخـل:

طيبةٌ أنت كخبز الأم وماء الساقية
الخشبية والعنقود
أتحسس وجهكِ في صوتي الممدود
وأشم جدائلك المنسوجة عشا للنهدين
فأمرغ وجهي . . أصرخ كي ينقذني جَرْسُ القافية الصعبة

حاصرني الرعب الصاعد من ليل الأركان
طيبة أنت . . ولكن الإنسان
لا يحلو إلا ساعة غيبته في الأرض .

جَسَّدَكِ اليأسُ الطالعُ في الأشجار

تفاحةَ نار

جسَّدكِ الحب الخائبُ والأبناءُ الموتى والأنهار

جزرا غارقةً ، وجها يصرخ في عينيه العار

فجريتُ وراءكِ . . أعرف أني لن أتعرف في

عينيك على منزلنا العامر بالأسرار

غنيتك . . أعرف أن الصمت

فرس تحمل هودجك المنهار

ورأيتك . . أعرف أن الشمس

كانت تثقب عيني في الزنزانة

والصوتُ الصاعد من أحذية الحراس

كان غناءَ العرس

وسمعتك . . أعرف أن الموت الطائرَ فوق الرأس

كان صديقًا يحجب عني القمرَ الميتَ في شفتيك . .

١٧- تنكــر يومـــي:

حين تركتُ الرأسَ في البيت ،

وسرت في الشوارع

أنكرني أبي

(علمني الكتابة

بالفأس والسحابة

علمني القراءة

في كتب المحراث والطوالع

والأحرف الكوفية التي ترقص في

الأسفار والجوامع . .)

أنكرني وردني مغتربًا في الوطن المرقَّع المخادع . .

* * *

حين دخلت البيت . . كان الرأس في السرير
مكوما وجاحظ العينين .

* * *

يا طفلتي . . يا طفلةً طيبة وشرسة
فلتفتحي نافذة على الرياح المشمسة
ولتضعي رأسيَ فوق جسدي . .

١٨ـ حُلمٌ في زنزانة العزيز:

حين تَخَلَّعَتْ مفاصلي وانسكبتْ عروقُها المهترئة
ولفّها الضِّماد بالنمل وبالثلوج
تكسرت في رئتي زجاجةُ المروج
وانسكبتْ خضرتُها المملَّحة
فأنبتتْ حنجرتي المقهورة
مرثيةً للدمن المهجورة
والزمن المصلوبِ، أنبتتْ أغنيةً مخبولة
ضاحكةً، تطلع في الجدران
تشققًا أو وتدًا أو سقطةً أو قلمًا يكتب بالدخان
أسماءَنا المنطفئة.

حين أدرت الرأس للحائط وارتمتْ بجانبي
أصابعي المقطوعة

رقدتُ خلف سور المملكة
أصرخ في الأحلام:
يا جثتيَ المرفوعة
مائدةً للريح والجوارح
لا تنزلي.. فالأرض ما تزال
مملكةً ممنوعة..

١٩- استـــتِغْـــداء :

أصرخ في المدينة المستسلمة
لعلها تبصق ساكنيها
أدور في الساحات والشوارع
أنفخ في الحفائظ المرّةِ والضغائن
لعلها تدفع من بنيها
فتًى يرحمني من جسدي الجوّال
بين السؤال والسؤال .

أضحك في مآتم المدينة
مستغْديًا تاريخها الوالغَ في الدماء
مكذِّبًا مناقبَ الموتى ورافضًا مدامع الأحياء .

أصرخ في المدينة الملعونة
لعلها تُخرج رأسها من معطف الترقُّبِ المهزوم
لعلها تقوم
وتشرئبّ كي تأكلني
حتى يجيئها سيفٌ مغامرٌ بضربة في الرقبة
يُطيح بالرأس
أراكِ يا مدينتي أضحيةً تنتظر السكين. .

١٩٦٨

الحصان والرأس

« من الخرافة الشعبية »

ـ ١ ـ

وقفتُ على شاطئ البحر أنتظر السفن العائدة
فأدهشني أن رمل الشاطئ كان يسافر
وأن كتاب الغرق
يسطِّره في سوافي الرمال غناءٌ محاصَر.

رأيتُ الخيول الغريبة
تمدّ من البحر أعناقَها الطافرة
وتصعد من زرقة الماء والملح . .
ينقش توقيعُها السنبكيُّ صكوكَ الرؤى البائدة
وتترك في أذن الأرض قُرْطَ الصهيل
وفي قمحها منجلَ الحمحمة
فتنزف شمس الأصيل

تَخَثُّرَها الدمويَّ على الطرق المعتمة

ويقتتل الطيرُ في الريح

لما أدرتُ العيون

إلى النهر . . كانت بأعماقه المظلمة

تفور البطون التى أنْتَنَتْ

والرءوس التي أكلتْها الحشائشُ

والأذرع الميتة . .

- ٢ -

على الأرض كانت بقايا خطًى وبقايا أغانٍ
من الدمع والضحكات البريئة
تمرّ عليها الرياحُ وتكنسها . .
(كانت الشمس موقدةً في الفضاء
تصبُّ على الميتين أكاليل شوك مضيئة
وتهبط حتى تلامس لحمَ الوجوه
وتقطف من زهرات الصراخ الخبيئة
لقاحَ الردى والولادة
وأزمنةَ الشعر . .
كانت طيورُ الظهيرة
شظايا هواءٍ تَفَحَّمَ . .
كانت تُدَوِّمُ ثم تحطُّ بأرض الوليمة
وتصعد . . بين مناسرها من رميم الصدى

وحشرجة الشمس ـ وهي تمر خلال
العيون تشقّ غشاوتَها ثم تسكب
دائرةَ الرمل في طعنة واحدة ـ
وتحمل بين مناسرها من خلايا الجسد
صراخا تحجر)

وكانت الطيور الظمأ
تجيء وتغدو هواء يهز الستائر، خشخشةً
في فروع الشجر
وحفنةَ ماءٍ على أصص الشرفات المضيئة . .

ـ ٣ ـ

رأيت الظهيرة
خيولاً من الشهوة الغامضة
تحمحم تحت قشور الكلام وتركض عبر
مسافاته الصامتة
فتهتز ـ من ضربات التشهي ـ خبايا المواريث
في الغابة الميتة
تدق الطبول البعيدة
ويغدو التحامُ الظلال على الأرض رؤيا قتال مؤجَّل
وبين اصطفاق الأكف الصديقة
يصلصل ما تركتْه القبائلُ من صرخات الحصار . .

وفي الليل . . كانت خيولُ التشهي تحمحم في ظلمات
المخادع ، ترفع أعناقها في رؤى الحدَقِ الباهتة

وتكتم أصواتها البربرية في ضربات الملاعق
أو في طقوس الرضاعة
تصير هواءً وخبزًا، تسدُّ الفضاء،
(وتلبس قشر الإشاعة)

ـ ٤ ـ

(رمتْ نخلةٌ تَمْرهَا في الرياح
فمرَّ إلينا ـ خلال السياج ـ
شظايا زجاج
ولحمٍ تفتت في السعف المشتعل،
رصاصًا من البقع الدموية . .
كنا أمام المرايا
نسدّ ثقوبَ الردى في القناع . .)
وكانت خيول الظلام
تحمحم بين الزوايا
وتصهل في كل قفل معلق
وفي كل عروة رعب تلف الرتاج
وتصهل . . تصهل . . تصبح أصواتُها نغماتِ التوافق
وإيقاعَ صوت القرار وصوت الجواب . .

* * *

نهز عن الجسد المتهالك قشر النهار ونرمي

حصاد الخطى . . تتفجر فوق الجدار مواسمُ

أحداقنا المحبطة

وتلتمّ كل المساحات، تجري خطوط الدوائر

تكتُّلُ، يصبح في كل دار حصانٌ . .

(وفي الخرج كنزُ الممالك والسفن الغارقة

ورأسُ قتيل ـ نجا قاتلوه وخلّوه بين القفار

ينزّ دمًا ونجيعًا ـ

: لمن يفتديه بحفنة دمعٍ وكسرة خبز

وشربة ماء

ويخرج في الليل فوق الحصان بغير شكيمة

ليطعمه برعما من غصون الحرائقِ،

يسقيه شكوى الطلول القديمة

ويدفن في غرفة النوم رأس القتيل

فسوف يصير الدم المتخثر زهريةً،

والممالكُ والجزر الغارقة

عطايا وخاتمَ عرش الجسد
وصكَّ الوصايا ومفتاحَ أرض المواريث
والمدن الطالعة

وجودًا بقلب الغياب
وطمئًا بنبع الحصى والتراب . .)

* * *

هوتْ حُذْبَةُ الأفق وازّخْزَحَتْ كِسَفُ الزرقة الهاوية
وطأطأت الأرؤسُ الخاوية
(فقد تفتح الأرض قفلَ صناديقها المغلقة
وتنشر تحت الخطا ـ من نصوص الوصاية ـ
عطايا الدفائن
وقد تفصح الأرض عن قطرات الدم الباقية)
ومن بين كل يدين تصافحتا كان صوت المفاتيح يسقط ،
والجزر الغارقة
تغـرغـر في القـاع ، تفتـح ذاكـرة الليـل والخيـل والأرؤس
الضائعة

وخيبةَ يأس الفجيعة
وحسَّ الرغيف المهادن . .

ـ ٥ ـ

على كل باب علامةُ كف ملطخةٌ بدماء طريئة
يجيء الصباح فتمسحها الشمس ،
يأتي المساء ،
فينسجها الخوف في الغرف الداخلية
ويطبعها ـ وهو يسرع تحت الظلام ـ .

(رصيف المدينة
سلال وأغلفة حجرية
تَكَوَّمُ فيها الرءوس وتنسج في
شعرها ودماها العناكب
بيوتا قديمة
وتحت الحوائط ، في الحافلات المليئة ،
تحت حصير الجوامع ،
في منبت الجذر من كل شيء . . تنزّ الرءوس
وينسج من شعرها الصمت والرعبُ

أشباح ليل الخرائب

ويملأ جوَّ المكان ذبابُ الجريمة)

* * *

يضيق حصار المسافة حول العيون .

(بعينيكِ يا طفلتي زهرةُ الشمس ، مملكتي ،

وخطايَ ، وعرشي الجموح

بعينيك أرضي القديمة

تمرين ـ مازلت ـ بين الرضاع وبين الفطام

أجيئك منكسر الظهر . . أعطيك سر الجروح

وأعطيك سر العيون الثقيلة

وأعطيك سر الأزاميل وهي تشق فراغ السطوح

وتكتب أسماءنا واحدا واحدًا

وتخط بقلب التعاريج طقس البراءة والإتهام

وترسم تحت شقوق التداخل

رماحَ القبائل .

وعيناك يا طفلتي زهرةُ الشمس، مملكتي،
وخطايَ، وعرشُ الجموح
خطاي وعرشُ الجموح..)

يضيق حصار المسافة حول العيون
ويشتبك الظل بالظل فوق الشقوق الحبالى..
١٩٧٠/٩/٢٧

رفع القمع عن فراشة الدمع

- ١ -

كان انتظارها الطالعُ في العينين
فراشتين .

لو أنها ألقتْ على يديه صدرَها المبتلَّ بالمطر
أو ضمَّدت أوسمة الموت بنهدها العريان
أو مسحت جراحه الخثْراءَ والسيفَ الذي انكسر
بثوبها الظمآن
لانفتحت يداه مرتين
فمرةً يمنحها هدية الرجوع
ومرةً يمنحها الخاتمَ في أصبعه المقطوع .

حين يصير الموت طارقًا ليليا
يرمي من النافذة المفتوحة

الراتبَ الشهريا
تظل في قوائم الأحياء
أسماءُ من ماتوا .
سنبلةَ البكاء يا سنبلةَ البكاء
لا تطلعي . . فالموتُ في الربوع
أصبح شرطيا
حتى تصير الأرؤسُ المذبوحة
موتًا غيابيا . .

كانت صناديق الهدايا الموجِعة
تُفتح تحت أعين الحراس
(الصمتُ كان الشاهدَ الوحيد .)
تُخرَج أكياسُ الحصى والرمل ، تُفتح القبور، تُغلق القبور
(الصمت كان الشاهد الوحيد .)
كان رجال الشرطة الملثَّمون يمسحون
أوجه الموتى من الصحف

ويُغلقون حول الدمع في البيوت
دائرةَ السكوت . .

صوت :

رأسي المقطوع
محشوٌّ بالأسلاك الشائكة الصدئة
والملح على أطراف الشفة المهترئة
صمتٌ منفجرٌ مسموع .
كانت أصوات الأرض المنطفئة
قيدا ونداء رجوع
لكن العربات الفارهةَ اصطبغتْ منها العجلاتُ
السوداء
ببقايا الأشلاء .

صدى :

كانت حبّاتُ الطمي تحاور رَشْحَ الماء

عن حبة قمح مبتدئة
شقت قشرتها وانتظرتْ في ظلمات الأرض
أن تطلع ساعةَ ينسج قمرُ الجوع
ـ من لحم الموتى ـ سنبلةً حية .

أصوات وأصداء مختلطة :

«الناس نيام
فإذا ماتوا انتبهوا»
«كانت أقفيةٌ مدبوغة
ـ بالصفع ـ وكان الرأسُ حذاءً للأقدام»

«لو أفْلَتَ صوتُ الموتى من بوابتنا الليلية
لعرفنا كيف نموت
معتدلي القامة»
«يوم تقوم الساعةُ والملكوت
ستقوم الصحراء المشوية

جسدًا مجبولاً من أجسادٍ، يتمطَّى،
ينفض عنه الأسلاك الشائكة الملوية
يفرك عينيه وينقر في الناقور »
«فلنحملْ ما أبقتْه الريحُ من الأشلاء »
«وإذا قام الموتي . . من يدفعهم عنا ! !
كلا . .
فلندفنْهم في أقباء الذاكرة الخوانة » .

٢ـ بكـــائيـــة:

لو كنتُ أعرفه . . لو كان يعرفني
لحملتُه خبزي وحملتُه كفني
وعرفتُ أن نداءه المذبوحَ يكشفني
نصفي يموت هناك
نصفي هنا يبكي . .

* * *

«أبكي على عيني»
محشوةً بالرمل والبارود
أبكي على ما أطلعتْه الأرض في النخلة
من تمرها الموعود
أبكي على الناطور والعنقود . .

* * *

فَلْتدمعي يا عين
هذا جدار البين
قد مَسَّحَتْه الريح
فتآكلت أسماءُ من ماتوا.
وَلْتدمعي يا عين
ليست تردُّ الريح
أسماءنا إلا بأن نبكي . .

* * *

لا تأكلوا أسماكنا النيلية
فصوتُه المكتوم
مكثفٌ في لحمها خليةً خلية
لا تأكلوا أسماكنا البحرية
فلحمه المهضوم
قد يرفع السكين، قد يقوم
في هدأة المضاجع الليلية

ـ٣ـ

من يعيد الميتين
خافضي الرأس ومعصوبي الجبين
كي يردوا شارة الموت الخرافي المهين
في ظلال الراية الممسوحة المنكسرة
ويردوا بيعة القهر وميراث الخلافة
ورقا محترقا يملأ عين الخائفين
من يعيد الميتين !!
حينما أوقفْتهم في الصحراء
في لباس الخوف والصمت . . تعرَّوا
ثم ماتوا قبل ساعات اللقاء
أيها الشعب الذي يركض زحفا للوراء
سدت الأرحام من دونك . .
لا تملك أن ترجع ماءً في
ظهور الشبق الأعظم . . فاغسل شفتيك
في مراسيم البكاء . .

- ٤ -

حفرنا الخنادق

بأجسادنا واختبأنا بصمت الخلايا

لبسنا حكايا العبور، لبسنا «بيان» الإذاعة

قناعًا، وخضنا طقوس الإشاعة

لتغسلنا من ثواني الغضب

وتغسلنا من قشعريرة الرفض، تطفئ ما

يتوهج بين السؤال المرير وبين غياب الإجابة

وفي النوم . . حين تفكك صمتُ الخلايا

تحول دفء الحشايا جليدًا وغابة

وليلاً من الصرخات البعيدة والطرق المبهمة . .

حلم الرؤيا :

كان في الهودج محمولاً وكان الدمع

غُسلا وحنوط

كانت الشمس بعينيه فراشة

حيثما حطت . . سمعنا نغم البدء وإيقاع

السقوط . .

مشهد الحلم :

كان يمشي في الظهيرة

كل باب أوقع القفل ،

وطارت في الفئوس

شارةُ البرق ، وفي حدِّ المناجل

كانت اللقمةُ تبكي وتقاتل . .

٧/ ٣/ ١٩٧٠

اشتهاء الملكة

حينما أدخلني اليأسُ بلاطَ الأمراء
والقصورَ الملكية
كنت وحدي، برعمًا في ورق الفقر، أغني
في القرى والمدن الدامية القلب وفي أرصفة
الثلج على باب الموانئ
ظلمةُ البحر رفيقي، والبكاء
لقمتي قبل طلوع الشمس، وجهي، وسريري،
غربتي، أرضُ بلادي
ـ حينما أدخلني اليأس بلاط الأمراء ـ
فتشهيت سرير الملكة.
(كنت أمشي في الدهاليز وأبواب الجواري
جسدي يسترق السمع على صوت الدماء
وهي تغلي في الحقول الدموية
وعلى صوت الثياب
حينما تنفرط العقدة عن أرض السهول المرمرية
والزوايا والنتوءات،

وموسيقى السفر
في أقاليم الحواس . .)
خطوتي كانت حروفا في كتاب الإشتهاء
كلما نقَّلت أقدامي تدلَّتْ كرمةُ الجوع وأمطارُ الظمأ
وهي خلفي : مهرةُ الرعب ، أمامي : غابةٌ مشتبكة . .
(كانت الأرض كباقي الوشم . .
أمشي في ارتباكات السطوح
مقشعرًّ الكف من مسِّ الزغب
آخذًا من كل شيء بذرةَ الكون وميقاتَ الفساد
آخذًا من غليان الدم في ورد الجروح
كلْمةَ السر إلى أرض الشقوق
وأخاديد العطاء . .)
كل شيء كان ـ من عنف النزوع ـ
طائرًا نحوكِ في عمق الزمان الداخلي
عله يسقط ما بين يديكِ
زهرةً راحلةً في سحب اللون وأطياف التداخل

خارجًا حيا من الميت أو منسكبًا بين توابيت الهيولى
راحلاً فوق خيول الحلم .
(أمتدّ بأصوات الثياب
حينما تنفرط العقدةُ عن أرض السهول الدموية
أبدأ الرحلة ما بين أقاليم الحواس
كلُّ صوتٍ نخلةٌ مثقلةٌ ، كل شهيق وزفير
نجمةٌ تفتح عينيَّ على كنز المساحات
وأفياء الرؤى بين صعود وسقوط
كلُّ تاريخ الأزاميل على طرْف الأصابع
راعشٌ يبدأ خلق الكائنات الوثنية .
كل مهوًى من مهاويكِ مدينة
نسجتْ راياتها وارتحلَتْ تحت شموس الإنتظار
أقبلت منها الكتاباتُ وأسرارُ القرابين الدفينة
وتواريخُ النبيذ الحيِّ في صمت الجرار
وأنا ألبس من ماء ونار وتراب وهواء
وجهيَ الأولَ ، أغدو نطفةً منعقدة)

وأنا أبكي وأبكي
نازفًا بين الدهاليز وأبواب الجواري
خطوتي تعويذةٌ في صلوات الإشتهاء
سِفْرُ تكويني سريرُ الملكة . .

٢٠/ ١٠/ ١٩٧٠

دائـــرةُ الــــدم

كنت أمشي، وأنا أحمل جرحَ الساعدين
وردتين.
كانت النار التي أحملها ـ وشماً وشمسًا بمساحات الجسد ـ
معجمَ الأرض وتقويمَ الفصول
وأنا أركض في دائرة الآفْق وإيقاعِ النزيف
وردةُ الجرحِ سِقاءٌ ورغيف
جسدي غمدُ السيوف
وأنا أمشي وأمشي
قدمي تصبح ـ في دائرة العالم ـ ملْقى الإرتكاز
جسدي أرضي وشمسي وسمائي
لقمتي جوعي، وأحلامي غنائي
وأنا أقطع أحبال الحواس
داخلاً نفسيَ موصولاً بمرمى طعنة العالم في قلبي الوحيد.
(كنتُ في ليلة عرسي
ودمي ساقيةٌ تنزف مني
تصبغ الأيدي التي امتدت

وتنصبُّ بأكواب الشراب

وعلى مدِّ البصر

كانت الأرض مساحاتٍ من العتمة والضوء،

تناديني إلى عرس خفيٍّ وطقوس

وتغاويني بأن أدخل في رقصتها

بين أسفار الأساطير ورؤيا خفة الموت

بموسيقى الرشاقة)

كانت الأرض العتيقة

آهة ممدودة في رحلة الصوت الكظيم

(اطلعي من جسدي

وافتحي نافذة الشمس على جذر الغمام

وعناقيد المطر.

اطلعي من جسدي

فأنا أحمل أثقالَ المساحات وتاريخَ الشجر

واصطفاقَ المعدن المصهور والصمتَ

الجنينيَّ بأرحام الحجر
ووِلادات السديم
فاطلعي من جسدي . .)
قمرُ الثلج يذوب
في احمرار السحب المنعقدة
والسما تلتفّ حول النطفة المتَّقدة
وأنا أدخل في بطن الجبل
يحتويني أحتويه، يختفي فيَّ وأمشي لابسًا قشرته،
أعبر جسرا بعد جسر،
أتخطّى جسدي، أعبر في مملكة الريح المسافر
باحثًا عن لقبي واسمي على شاهدة القبر المهاجر
بين أيام السقوط
ومتون البحر والرمل وآثار الحوافر.
(الدما موصولةٌ تحت الجذور
وأرى الغابة تعلو
ثم تمتدّ وتصطفُّ الجذوع

كلُّ جذعٍ قبضةٌ منتزَعة

من توابيت النذور

كل فرعٍ برعمٌ يمشي ويطوى تحته من

كبد الإرث خلية

فاتحًا بدءَ الطلوع . .)

٣/١١/ ١٩٧٠

شهادة البكاء في زمن الضحك

إهداء لم يسعفه وقت الروح

إلى الشيخ عفيفي عامر مطر:

على الجمر الهادئ لقرآن الفجر وركوة
الأوراد وعنفوان الروح وصرامة
التحديق في مصائر الخلق بين موت
وحياة وحق وباطل.. كانت كرْمتي
تخضُّر وتُساقط منثورَ الحصرم ومنظومَ
الدمع على بساطٍ من رماد الأزمنة.

إيقـــاعـــات مـــرئيـــة
من حـدائق الصوت والصـدى

«افتتاحيات»

* (تتداخل الأشياء ويقتحم العالم فضاء النفس بأخلاطه وفوضى مساحاته الصوتية، تصبح الأشياء قشرة تسجن هواجس القلب وتجهض بذرة الهارمونية، فنغرق شيئًا فشيئًا في رمل الغربة والاستلاب، نضيع في كتلة الأجساد المتضاغطة المتدافعة في الشوارع والحافلات وأضواء الدكاكين وعلامات السير، تتفرع شجرة الكراهية وترمي في كل عين بورقة وفي كل قلب بزهرة من أزهارها السوداء، وكأن اختلاط الظلال على الأرض رؤيا عراك دموي مؤجل، وتصبح اللغة سورا قائما حول كل فرد جاعلا من

مـواطئ القـدمين وطنا ومـن الجسـد جزيـرة وحيدة ومـن العقـل شكيمـة تلجـم اللسـان وتخرس الإفصـاح، وفجـأة. . تلتقـط الأذن إيقـاع آيـة مـن القـرآن مـرتعشـة بالصدى تخترق كتلة الأجسـاد وقشرة الأشياء، تهدم أسوار الضجة الخرساء وتجعـل المنفى وطنا مغسولا بمطـر الفهم وتقلب فـوضى العـالم وتعيد تـرتيب كـل شيء، ويتجسد إيقـاعها أزمنـة وخيوطـا تحدد عـلاقة الأشكـال والوجـوه وتعابير العيون. . كل شيء يصبح حـوارا معها وجزءا من معناها الكلي، تمتد نسيجا وقناعـا ورؤية، تصبح مفتاحا صوتيا يشق الأبواب ويكشف خبايا السرائر، يصبح العالم حدائق صـوت وصدى. . بالسير فيهـا نفهـم ونتعلـم فن التحـديـد والتقسيم وإطـلاق الأسماء، نصنـف أشجـار الغضب وأشجـار الشهادة، أشجار الـرحم ولغـة القلب وأشجار الكـراهية، أشجار الثبات والانـدفاع والصيرورة وأشجار المخاض والولادة، أشجار ما كان وما يكون. .)

فـــاتحـــة :

بسم الله

باسم الإنسان الميت في طرقات الطاعة

والمشبوحِ الكلمة في أحزان القلب

باسم اللعنة والمغضوب عليهم والضالين

أبتهل إلي الكلمات ـ الحربة

والإيقاع الطعنة

والفاصلة الحادة كالسكين

أن تقطع ما يربطني بالإنسان

أن تجعل مني ذئبا يعوي في ظلمات الوحشة والبرية

(هل يصرخ باللعنات الرافضة المهزومة

غير الإنسان العاشق !!)

أبتهل إلى أقمار الطمث المخصب والأشعار

أن تضرم في كلماتي النار

أن تحرقني وتبعثرني

أن تجعلني أمثولة هذا الصمت الأسود،

أن تربطني شارةَ عار في عنق السجان

أن تجعلني لفظًا مرًّا في أفواه الدجالين الكذابين

غير المغضوب عليهم غير المرفوضين

آمين..

معـــــوذة :

أعوذ بالشعر من الجنون
لولاه ما كنتُ ولا تفتَّحت تحت مشارط الشمس
مسالك الرؤية في العيون
لولاه ما تكوَّرتُ وانبسطت جوانبُ المهجور والمسكون
لولاه لانتحرتُ تحت مطر الدهشة بالصمت أو الخيانة .

أعوذ بالكهانة
من هذه الفضيحة التي تطردنا من جلدنا
تجعلنا نهرب في ا لأشياء
فمرة نقيم في صخرية الصخر وفي سيولة السوائل
ومرة نقيم في عشاش موتنا
ولا نقيم ـ مرة ـ في بيتنا المعمور بالهواجس .

(لولاك يا كهانة

ما أفصحت قصائدي المعتمة الملعونة

عن غضبي المرير والوساوس)

أعوذ بالبؤس الجريء والوساوس

من راحة التراجعات والتوافقات والتآمر

(أراك يا مصطلح «الظروف»

محنَّطا تُنقل من جبانة السلب إلى مقبرة الإيجاب

فمرة تبرر الهزيمة

والرعب والجريمة

ومرة تجعل من شعائر الموت شعائر القيامة

وتجعل الرحمة طائرا يفرخ في أسنة السيوف)

أعوذ بي مني ومن تخبطي في اللعنة المقيمة

أعوذ بالرفض وبالقصيدة

من نعمة الرضا . .

إيـــــلاف :

أعرف أنني لم أفقد الشجاعة
وهامتي مشدودةٌ وأعيني مرفوعة
لكنني

لو سقط الرأس أمام السترة الكاكية الأنيقة
وسقطت والدتي مبيضّة الضفائر
ومزق الصحاب ما كتبت من رسائل
وانتسخت ملامحي في ظلمة الرءوس ،
لو أنني واجهت ما ينبت تحت الأوجة الممسوحة
من مخلب وناب ،
لو أنني واجهت ما تفعله الكيمياء من عذاب . .
هل أفقد الشجاعة
وتسقط القصيدة الجريحة ؟!

صوت يتردد في أركان العالم :

ترفع في وجهي السيف؟ !
وأنا أطعمتك من جوع ، آمنتك من خوف
بعثرت حواليك العسس المستيقظ والحراس
غلَّقت العالم خلفك حتى لا ترتد
وأقمت أمامك في طرقات السعي مغالقها المأمونةَ
كي لا تهرب من نعمائي وعطاياي ! !
ما لي أنظرك تولول من جزعٍ أو تصرخ
من إجهاض الصيف
وأراك تولول كالممسوس
وتفر كأنك تُفلت مني . . أنت أمام عيوني حيث توليت
ياللقلب الجاحد
يرفع في وجهي القلم ـ السيف . .

تطفيف :

هم في ذرى الأمواج حينما ترتدُ في انكسارها
على الشطوط، أو في لحظة اندحارها
وعوْدها المهزوم للظلام
همو إذا تحدثوا فالقول جثتان
إحداهما ترشَّشتْ على صديدها مستحضراتُ العطر
والتجميل من قنائن الدس وزَهَر الخديعة
لكنهم إذا تحلقوا في السر . أخرجوا الثانية المنتنة المريعة
وأبَّنوها ليلة من بعد ليلة . . واغتسلوا وأقفلوا
دفاتر التمائم المقدسة
وهتفوا ـ في الصمت ـ بالمحفوظ من طلاسم النصوص .

(ما من محدث يقول ما يؤمن به
ما من توجع يحمل في إيقاعه صراحة الآلام

ما من تعارف تكشَّفت في نبله شراسةُ
الأرض التي تحبل بالأحلام)

ترتعش الوجوه بانفعالها المفتعل الدخيل
لكنها ـ تحت صفاقة الجلد ـ ارتختْ
وانتهبت لذائذَ الرضا ونشوةَ الإغماء .

(تفجَّري يا كتب النصوص
تفجري يا كلمات السحر في الطقوس
واعتدلي يا رقصة الأرض على حبائل الأبراج . .)

همو إذا تحدثوا . . فكل شيء ممكن ومستحيل
والتحفوا بشملة الترادف المخيف :
السير والوقوف
القتل والإحياء . .

١٩٦٧/١١/٢٦

مصادرات على مصير

صورة :

الشاعر الذي يسير مائل الرأس محاذرا في الطرق
المشبوهة
يقتات من جهامة الصوت وعقم رجعة لقمته
المكروهة
يُطرح ـ في كل قصيدة ـ على مشرحة الأسئلة اللئيمة
يُسأل عن خلقته المعوجَّة القويمة
ورعبه في طرق العصر وعتمة الرؤى وغيبة الفكاهة .

* * *

الشاعر الذي يخوض زحمة العالم ـ بين مهده
ولحده ـ تسأله الأشياء
في وجهه يلبس كل مشهد عباءة القضاء
في الزمن المرعب كل لفظة أو سكتة شهادة .

صوت :

حاكمني الصباح والمساء
طُرحت بين تهمة الصمت وتهمة الغناء
وانكشفتْ تحت شموس القهر سوءتي
وغُلِّقت منافذ الأمام والوراء
واحترقت عريضة الدفاع في مواسم البيع
وفي كهانة الشراء .

صورة :

في زمن الجوع تسمن الأقفية المفلطحة
وتُملأ الجرائد المملحة
بالطُّرْفة البذيئة
وتغلق الشوارع المفتَّحة
بالجثث المطوَّحة
وتستنير المدن القميئة

بالأنجم النحاس والأهلة الفضية الصديئة .

صوت :

كيف جرؤت أن تمر عبر بابنا المحرمِ
لا أنت من طينتنا ولا على صدرك شارةُ الدخول ! !

صـوت :

أنا مسافر مغتربٌ ، غسلتُ طينتي في مطر الفصول
أرقص في الأعراس أو أُنشد في مدائح الفحول
أو أقرأ المرثية التي أعددتها لأي مأتم
أو أعصر النبيذ ـ للذي يدفع ـ من عصارة الدم .
حنجرةٌ أنا لكل نابح وصاهل وشاحجٍ ،
للندب والطبول
مؤتمن على الحريم ، عالم في شجر الأنساب أو في كيمياء

الجنس أدخل المدائن الزانية المدخولة الأصول
أجعلها طاهرة ،
أدخل ـ متخما بالطبع ـ في أزمنة المجاعة
أجعلها حديقة مثمرة أو غيمة ممطرة في
كتب التأريخ والشريعة
أنا مسافر أدخل في البوابة الممنوعة
وشارتي التى أرفعها : قصائدي الطيعة المطيعة .

صوت :

كيف نجوتَ إذ دخلت الطرق التائهة الغريبة
كيف نجا رأسك من حوافر الخبل ومن خناجر الظلمة ،
لم يسقط بك الجسر
ولم يُغلق عليك العالمُ الحائطُ
لم تغرق بل الجزيرة ـ المنفى
ولم تسقط عليك السدم ـ الأعجوبة ! !

صوت :

تركت في منقطع اليأس رواحلي
شربت من ساقية الدماء في دواخلي
أكلت ما أبقته لي عاصفة النيران من سنابل
وجئتكم أظلع في توافه الهموم
أجمع باقتي من زَهَر الزقُّوم
أخصف من أشواكها دُرَّاعةً تسترني من وجهيَ الموشوم
مبتعدا عن الغنائم المقسَّمة
وغائبا عن التحالفات والتواصلات والمساومة .

صوت :

العالم الذي أقام ليلة المأتم . . ماله يرقص في
سرادق الجرائد المحنَّطة
والجبل الذي تطعمنا كنوزُه برادة الحديد . . ماله
يجتذب السفائن الممغنطة ! !

صوت :

القصص المستسخفات والقصائد المعادة
والناقد الأبله والمعلم الجرادة
أقيسةٌ منتجةٌ في منطق البلادة
والشاعر الذي يسير مائل الرأس محاذرًا
يقسم أنه سوف يموت غيلةً
وأنه سيبدأ العبادة
وأنه سيأخذ الصُّفْرةَ من وجوه جائعيه
كي يفرشها سجادة . .

١٩٦٦/١٢/١

أغنية

يا طفلتي التي عشقتُها في مطلع الشباب
هودجُك الحراب
خضابك الرمالُ ،
والقبة من مطارف الجزائر البعيدة
والخُفُّ من غرائر العنبر والفتوحُ في زخارف الثياب .

عيناك يا حبيبتي قافلةٌ مثقلة بالكحل والزمان عاصفٌ
يذرو عليهما الركائز الجديدة
والشيب في فوديك
ورقدة الشموخ في نهديك
وماؤك المالح في فخذيك

أجنةٌ شائهةُ العيون

أجنة مطبقة الشفاه

ونطفة لم تشتعل بمائها الحياة

فانتفضي من قبل أن يدركني الجنون

وارتحلي وحيدةً . . وانتظري القيامة

كي تلدي أو تولدي في القبر. .

يا طفلتي . . يا قمر الأشعار

يا غربتي التي تطلع مثل السر

ارتحلي وحيدة في الشعر

واغتسلي بالنار. .

١٤/ ١٢/ ١٩٦٧

تطوحات عمر

«انقسامات وإسقاطات»

٦٧/٤/٢٢

١٩٦٧/١١/٢٥

- ١ -

أشعر أنني أدين للهواء
بالثمر الذي ينضج في حنجرتي الملتهبة
أشعر بالدماء
ترضع من عناصر الأرض وزرقة السماء
وفي فِقار الظهر وانحناءة الضلوع
أشعر بالدموع
والعرق الذي تسفحه السواعد المغتَصَبة
أشعر بالزروع
- في جسدي - تصرخ من غرابة الجزاء .
أدين - حينما أفصح - في الأسئلة البريئة
للُّغة الخبيئة .
أدين بالولاء
للشمس والكواكب المحتجبة

والجسد ـ النسيئة
يسألني في الصبح والمساء
عن موسم الوفاء
وردٍّ ما أحمله من الودائع المنتهبة . .

تطلقني الرياح في فجاجها الدامسة الوضيئة
تسألني عن فديتي وذمتي البريئة
والموعد الذي تضربه ما بيننا سحابة النقاء . .

ـ ٢ ـ

في الليل . . كانت العناكب السوداء
تنسج لي عباءة
تسترني «تفضحني» إن طلع النهار
كانت خناجر العيون
تنزع عني قشرتي، تتركني معلقا في الشعرة التي
تفصل بين الليل والنهار
مختَبلا في لعبة الأقفاص والمحابس المزخرفة .
وحينما تقطعتْ أربطة اليقين وانطرحتُ في
أقبية الأقضية المجوفة
مررت في معاجم الألسنة المحدثة القديمة
فانكشفت خيانةُ الأسماء .

الشبح الملثم المختبئ اليدين

يحرسني من سقطة الفجاءة
يقطف من هزائمي وغضبي عطاءه
يخاف أن أخـونه بـالموت أو تخطفنـي الـرياح في سنـابـك
المصادفة
فتصبح الرشوة والأعطية الموعودة
نسيئةً تستوجب الدفع وصخرة تسحقه بالدين . .

* * *

أيتها الأسماء
من معجم لمعجم قطفت ما يطلع من أزهارك المحنطة
ومن سيوفك التي تقطر بالدماء
تنبعث الأشلاء
في الكفن الذي يُنسجُ كلما استدارت الفصول .

* * *

هذا خراج السنة الجائعة اليتيمة :
اللُّقحة التي تُزْبد في ضروعها غمائمُ الخير ويحبل
السنبل والكروم

قد جَوَّعت صغارها وانطفأت في ليلها النجوم
وهذه قريش
من بعد أن تحمَّلتْ أمانةَ السِّقاية
تجلس فوق العرش
وهذه مساحب الفئوس في الأصابع الناشفة الممزقة
تصرخ في أودية الولاية
تسأل عن مراسم الوصاية
وهذه العمائم التي تكبر كلما تقلصت من تحتها الرءوس . .

* * *

هذا حصاد القهر:
الحارس الذي أقمتُه في هذه المدينة
خرَّبها كي يبتني بوابةً للقصر
رأيته منتفخ العينين (علَّه يفسق في الظلام)
رأيته مرتعش اليدين (عله يبسط كفَّه في المال أو
في الجسد الحرام) .
رأيتني أنام

على مكائد الإمارة ـ الجيفةِ
والحبالة التي تُنصب لي في طرق الخيبة والجحيم.

أيتها الأسماء
فلتُسفري عن وجهك الخفيّ مرة.. أيتها الأسماء..

-٣-

المرأة التي تنبت في أعراقها صبَّارةُ الشهوة والعذاب
تخمش ما تراه من فاكهة الشوك التي تطلع في حدائق
الجسد
تشد ما ارتخى من الثياب
من تحتها يرتعش السرير. .

والرجل الذي يركب ناقة الفتوح
قد طوحت بوجهه زحزحةُ التخوم
فصوتُه مركبة تسبح في السراب
وعطره جزيرة طافية تسكنها النجوم .

صوتاهما يلتحمان في مدارج الرمل ،
ويطلُعان تمرةً في سعف الخرافة

بينهما . . عباءة الخلافة
قد ابتنت حوائط الغياب والمسافة .

* * *

أرى المناجل التي يأكل من شَباتها الحصَّاد
وتُبتنى من شِقها مدائنُ العالم أو يُعتصر المداد
تحولت في طرق الرماد
سنابكا للخيل ، أو سلاسلا للقيد ، أو علامة
تلمع في أوسمة الأوغاد .

* * *

أرى التخومَ زُحزِحتْ . . فامتلأت بالدَّغلَ النوايا
وامتلأت خزائن الرشوة والجباية
وبيعت الحرة بالسبايا . .

الخير سكتي والشرُّ في خُطايا
أيتها الوصايا
تعطنتْ فيك البذورُ أم تكلَّست طينتُكِ
السوداءُ والجذور ! !

- ٤ -

أرسلتُهم كتائبا أرسلتهم سرايا
فانكسرت رماحهم بتخمة العطايا
والتمعت في الفرش الممهدة
الأعين المذعورة الغريبة
وانسكبت خزائن الثغور
واقتتل الأبناء ليلة الموت على توارث السبائك
التى تُقطع بالفئوس
وانكفأت علامةُ الشهادة
فأصبحت علامةَ انتحار. .

* * *

أرى ظلالك التي تمتدُّ يا أبا سفيان
أقنعةً تلبسها الوجوه
أرى الطقوس فوق وجهك المشبوه

تؤتي ثمارها المرة في أربعة الفصول

فأنت في ولائم العرس مقدَّمٌ ممتلئ الشدقين

وأنت في أزمنة الوباء

تكتنز الفضة من تجارة الأكفان . .

ـ ٥ ـ

أهربُ من بشائر الطاعون

(فالجثث التي تزرعها الأحقاد والمقامرة

تعفنت، وعافت الطيور لحمها المعذب المنفيَّ

من مملكة الظل ورحمة الشهادة المبررة).

أهرب من تخبطي في طرق العذاب للسجون

أصبح مرةً على رءوس الشرط الغيلان

(فليس يأمن الأرض سوى السجان

تهدمت أو قويت مقالد الخلافة).

ومرة أرقد في الزنزانة

أطرح فوق أرضها الجاسية العريانة

أغنيتي وطينتي الممتحنة

أغلِك حين يهبط الظلام

الآهةَ الشوكة والدموع

والمضغةَ التي تشعلها الحسرة في الضلوع .
أهرب من نوافذ السجون
في الضوء والرياح والمراكب التي تبحر في مضايق الظنون
أسقط في المصيدة الضيقة الوسيعة
تضربني حواجز الفكرة والطبيعة . .

* * *

أرى عيونكم مطفأةَ الإبصار
أرى وجوهكم يرشح فيها القيء والرعب والاصفرار
أراكمو أقفيةً مدبوغة بالصفع ،
أظهرًا تقوّست في طلب النوال والصفح ،
أراكمو مسامعا تضخمت بالهُجْر والنميمة
أراكمو بالأوجة الذميمة
مشبعةً تقاتلت واغتلمت باليأس والهزيمة .
(لو طلع النهار
وأدركت قريش أنها قد غُلبت في النصر والهزيمة
لارتدّ بأسنا ما بيننا

وانكسرت في لحمنا سيوفُنا المشئومة) .

أراكمو سحابةً يسودٌ فيها الصمتُ والغباء ،

أغنيةً شائهة تصرخ في مزاهر الإتاوة ،

جمجمةً تملؤها الأحقاد والتخوُّنُ المشبوه والضراوة

أرى مخاتلاتكم تقنَّعت بالطاعة اللئيمة

ألقيتمو بمقود الأمر إليَّ واستنمتمو للصمت والنساء

والبيع في مساجد الله وفي الأقوات والشراء

(أشرس ما يكون

تخوُّفي واليأسُ والجنون

في عنقي أمانةٌ . . لكنها تخون) .

أيتها العيون

متى أراك غاضبة

متى أراك تدمعين بالصدق كأنك السحابة الرحيمة

أو تلمعين كالخنجر حينما تشحذه الشرارة

متى أراك في توثب الثورة والقيامة

كي أترك الأمر وأعبر البرزخ للسلامة !!

- ٦ -

الهوَّة التي يسكنها الإنسان
تزوجت وحشتُها من جوعه
وليلُها من رعبه
وشهوة الدماء من ظلالها
فولدتْ خلائقَ الظلام
ترقص فوق سقفها الشموس والغيوم
والقمر المجنح الطائر والنجوم.

الهوة التي يحفرها الإنسان
بالصمت والكآبة
بالصوت والكتابة
وباقتسام الأمر بين شارة السيد أو مقاود العبيد
يعبرها الرب مدمدمًا بلغة البروق

يعبرها الأقزام

متوَّجين بالقهر وبالدماء .

* * *

الهوة التي تمتد ـ كي تضيق ـ

متى يعبرها الإنسان ! !

ـ ٧ ـ

العالم الذي يطلع من دمائي
يرقص في تداخل الضوء مع الهواء
يشق عنه قشرة الموت الذي يزحف في أعضائي.

* * *

في وجع من دهشتي وحيرتي أسافر
من مدخل لمدخل أمرق في مآتم العالم والمساخر
ألبس من تفجُّعي عباءة
خيوطها تذكُّراتُ الشمسِ والشهوة والضفائر
والفقرِ والسخرة والمقابر
نسيجُها مرقَّعٌ
فرقعةٌ من كفن
ورقعة من بيرق
ورقعة من سندس المجازر

أدخل في الشوارع المضاءة
فتستدير في تعامُدٍ محيرٍ، يختلط الرجوع بالعبور. .

* * *

ها أنت يا معذبي . . تسألني الدخولَ في مستغلق المعابر
تسألني في اللحظة المسمومة المريرة
أن تلبس الملامحُ المربدَّة الفقيرة
أقنعة الغبطة والرضا .

ها أنت يا معذبي تُدخلني في الزمن الرجيم
تسألني ـ في عالم مكور وأسطح منحنية ـ
أن أبدأ الرحلة حيث اعوجَّت المحاور
على طريق ثابت ومستقيم
والعالمُ الذي يطلع من دمائي
تَوجُّعٌ يقول لي : تعال
وغضبٌ يقول لي : بوابتي مرصودة الأقفال .

* * *

في لعبة الخناجر
ولعبة الرغيف
ولعبة الأصوات في الحناجر
ولعبة الأليف والمخيف
أبحث عن شرعية الطقوس
والعلة الخفية التي توقعنا في شرك اللصوص،
تقعدهم مقاعد الإمارة.

ـ٨ـ

اعتصرتْ يداك نطفةَ الأرض ونطفة السماء
وهبْتَني تحيُّرات الصمت والغناء
أوقفتني ممتلئا بالحب والعطايا
محملا بالشعر والعذاب
أغص بالشكر وبالخوف وبالبكاء .

* * *

أعرف أنني علامة علي السقوط والبراءة
أعرف أنني ـ هنا ـ أحمل صرخة الأبكم واليائس
أو ظلامةَ الأخرس
أو تفجرات الفعل في السواعد المقيدة
أعرف أنني محيَّرٌ في هذه الشعائر الميتة المجدَّدة
لكنني أولد في تواصل الظلمة بالنهار
أولد في تزاوجات الحب والطبيعة

أولد في السؤال حول سقطة الإنسان في الفجيعة
لكنني أموت
في كل صرخة يُفتح أو يُغلق في إيقاعها التابوت.

* * *

حَمَّلْتَني - يا مطلقي في طرق العذاب - بالعطايا
وزِدتني تذمُّما وغضبا وخيفة
أطلقتني محترقا في جسدي المشبوح
أصرخ في تخبطي ما بين هذي السرج المعلقة
وبين هذه القتامة الغائرة الجذور. .

* * *

لو أنني أتيت
مُطَّرِحًا شواغل المعاش والمعاد
مطرحا قصائد اللغو على أبوابك المظلمة الرهيبة
لاستغلقت في وجهيَ المسالك
واستغلقت طرائقُ القبول والمهالك
وانفتحت عن جثتي المشوهة

مقبرتي، وعافت الطيورُ لحمَها وكرهت صديدها الديدان
وردني التراب
فضيحةً وجسدا معلقا بين رياح الموت والحياة
محنطا تستره أردية الأحياء . .

* * *

يا منقذي . . لمن وهَبْتني الدماء !
أعرف أنها في جسدي وديعة
أعرف أن صوتك الرهيب في استتاره بقشرة الأشياء
يصرخ أينما توجهتُ
وجسدي يأكلني
وحفرتي تضيق
فلترمني بحربة العدو أو بحربة الصديق
كي أنزف الدماء في الشعر وفي السنابل
كي أعبر المضبق
مستفرغا هِباتِك المحرقةَ المريعة . .

٢٢/ ٤ـ ٢٥/ ١١/ ١٩٦٧

تحريضـــات عـــمر

١ـ مواجهة :

كنت أدبر المؤامرة

أحمل عُزَّايَ من العجوة في المخلاة

وأرتعي الضِّبابَ في الفلاة

كنت أسائل النجمة والحصاة

عن صمتها الذي تخارجت به عن طرق الردى وطرق الحياة .

* * *

أجاعني السُّؤل وجففت حنجرتي مرارة الظمأ

أبحث عن كفَّارة

تجعلني محرِّر العبارة

أبحث عن تواطؤ يقْدحني في اللفظة الشرارة .

* * *

حدثني محرك النطفة في الغمامة
بأنه كوَّرني في رحم الدمامة
أخرجني وزرع الحسرة في العروق
حدثني بأنه يسخر من تخبُّطي في طرق البروق
يسخر من تهربي وحسرتي بداخلي مقيمة
يقول لي :

«في مطر الغيلة أو في شرك المكيدة
ودمك الساقط في الثريدة
ستجد العلامة
والموعد : القيامة . . »

* * *

أغاضب الظلمة والنهار
أقطع ما يربطني بالغيم والسراب
يُجيعني الوقوف بالأبواب
فأنفض المخلاة

أُخرج ما صنعته من عجوة في هيئة الإله
آكله من سغب لم تفلح الصلاة
في رده . . أنتظر القيامة . .

مونولوغ :

ها أنت يا عمر
تحمل فيك جثة القضاء والقدر
تحمل فيك صنعة الخلق وقدرة التهديم .

لو كان رافعا بحوله سقيفة السماء
أو مجريا في طبقات الأرض ماءه القديم
أو مطلعا من ليلة مصابح الفضاء
لانهدمت بهدمه روابط الأشياء . .

ـ الخروج :

خرج أول الشباب جائعا . .

تتركني رواحلي في رحلة الصيف ورحلة الشتاء

خرج في قافلة اليأس ،

تخونني قافلة الرجوع

حمل في الرَّحْل تجارة الدموع

دخل في المساومات . .

أحمل القمح وأحمل الزبيب . . غير أنني أجوع

لأنني أبيع ما يباع

وفي دمي تشتعل الشهوة للمقايضة .

* * *

الشمس أسْرجتْ أحصنة الصهد وأطلقت حرابها

فانقلبت في دميَ السماء

تغسل ـ من ترابها ـ النجوم والبرق وتغسل المطر

* * *

أختار أن أكون حيثما تكون القلةُ المستضعفة
مسربلا في الهزء والزراية
أختار أن تهجرني الدرابك المزيفة
وأن أموت في مشانق القصائد المرقعة
أنشقُّ عن تنطع الجماعة
وآكل التراب في زنزانة القضية المناقضة . .

* * *

في وضح النهار
أنظر في كلاحة الوجوه
مشتعديا هدوءها المشبوه
أكشف عن مقاتلي وأستثير القَرَم المكروه .

* * *

اليوم لن تشملني السكينة
بغير أن تضربني في مقتلي خناجر الضغينة
اليوم لن تشملني السكينة
بغير أن أركب ناقة الردى إلى الخلاء

اليوم لن تشملني السكينة
بغير أن أطرح من دمي عباءة لتشرب الأرض وتشرب
السماء
بغير أن أدفع ثمن الشمس وفدية القمر
مقايضا بدميَ المشتعل السجين.

مونولوغ :

ها أنت يا عمر
تخرج في رائعة النهار
مستعديا عليك اللؤم والغيلة،
صارخا في البشر الأحجار
أن يرحموك من غوائل العروق
أن يفتدوا بدمك المحروق
ظلالَ نخلة أو قطعةً من الحجر.

ها أنت يا عمر

تخرج للفلاة

مستعديا عليك العالم الجبان والسعلاة

مستوحدا معذبا مشتعلا في دمك المحرور

تبحث عن شعائر السكينة . .

-٣-

استفزاز :

أردتُ لو وضعتُ في يد السيد مقود العبد

وفي يد العبد مفاتح الوصاية

مررت في الأسواق رافعا من غضبي علامة وراية

يدخل تحت ظلها الآبق والهارب من مظالم الولاية

مررت في مضارب العلية والأشراف

مشهِّرا باللص والخازن والسياف

أضرب في الوجوه ما أرى من صلف الأجلاف

مفتعلا قساوتي وباكيا في الليل رحمةً

وخائفا أن ترفع السوائم البكماء

- من غير أن أسمعها - صرختها بالجوع والشكاية . .

مونولوغ :

ها أنت يا عمر
تثير ما استكنَّ في وجوههم من صلف مقيت
ليدفعوا عليك من تجارة النذالة
الرشوة المحْيية المميتة .

أضاعت الكظَّةُ من صدورهم نوازع الرجولة
فلن تموت يا عمر
مجندلا في دمك المشتعل الحزين .

في زمن التخمة والمجاعة
يُستأجر القاتلُ بالدراهم التي تسرق من أرغفة القتيل . .

ـ ٤ ـ

استعراض :

أراه في جوانب المسجد راقصا مقتربا مبتعدا
معلقا في الضوء والعتمة، في تربصاته، منكمشا ممدًّدا
منتظرا بين فواصل السورة،
بين آية وآية
وطالعا من رحم الليل وبيضة النهار
ومنشدا مرثيتي في السعف الأخضر والعَرار . .

* * *

أنام في المسجد والعراء
أعرض ـ في تغافلي ـ النُّهْزةَ للمشيئة
منتظرا طعنتها الجريئة
منتظرًا أن تثمر الرشوة والأعطية الخبيئة
سنابل الدماء .

مونولوغ :

ها أنت يا عمر
تكشف عورتيك :
حزنَك وانتظارَك الطويل .

تؤمهم ، تكشف ظهرك المرئيَّ للصفوف
مستطلعا وشائج الذَّحْل ونذر الحقارة
ومغريا نهَّابة اللقمة والإمارة .

لا رحمةً يتركني القاتل بل خيانة
أيتها الضغينة
فلتطلقي قُبَّرة الدماء في الحقول . .

١٩٦٧/١/٢٢

اليمـــامة الداميـــة

« من رؤيـا ١٩٦٤ »

كان في قلبيَ عش من نديف الزغب الأخضر
مجدول بمنديل النزيف
ويمامة
كلما أثقلني الحب رمت زهرةَ نارٍ وعلامة
طوّقتني بالمواريث التي حُمِّلتُها من قرية النمل القديمة
فأرى الشمس تدلت (في غواشي الحلم)
أعطتني الشعار الملتهب
فتقاسمتُ مع الأرض الرغيف
وافترقنا .

(سأعطيكِ إبريق ماء غريب
لكي تغسلي فيه حزني
وكي تغرقي فيه ما اعتاد قلبي الكئيب
من الموت ،
لا تتركيني ولا تسمعي من تراب الدم الحي رؤيا
ولا تطلقي طائر الدمع مني
دعيه يَرِدْ دارةَ الخمر والشعر،

إن الرؤى لم تزل من ضلوعي تفرُّ
ومازال خبزي دمي الحيُّ،
أُنسيت ما كنت أعددته من حكايا
لكي أطرد الصمت عنكِ.

تعاليْ بنا ننطلق ساعة في الظلام
لتهوي علينا سحابات أحلامنا باليمام المضيء
ونطوي كتاب النزيف . .)

كل شيء دامعٌ، كل رصيف
تنثر الريح عليه الذكريات المبهمة
كل شيء كان يُستقطر مني
وأنا كنت أغني
في خلايا كل شيء
ـ وأنا أنظر من طاقة سجني ـ
رفرفتْ وانزلقت إحدى النجوم

غطست بين الغيوم

طلعت نجما نحاسيا على سترة سجاني الغشوم

وأنا أنظر ما بين الزوايا

يصعد الطفل الذي يلبس وجهي وخطايا . .

(تعلقت بالقمر المتخفي وراء الضباب

ولم يتقدم معي جسدي المتعطشُ للنوم ،

لم يمتلئ بالتشهي الجِبِلّيّ ،

خلَّعني الرعب من لغتي الرؤيوية

وعرَّفني في احتراقات ألوانها الغرينية

رموزَ الأساطير والشجرَ المتهدل في طرقات الخرافة

وعرفني فرحة الشمس والقمر المتكسرَ

في أحرف الأبجدية

وعرَّفني وطني واغترابي) .

يصعد الطفل الذي يلبس وجهي وخطايا

يدخل الساحة في موّاله المغترب الإيقاع

تغشاه الرؤى منفتح العين، يغني
- راقصا - يحلم بالشمس التي تطلع من عنف الدما
والقمر الساطع في جوع الجسد
كلما مر بأبواب المدينة
نزَّ من أخشابها الطمْثُ وغارت سوسةُ الشهوة
للطمي وأنفاس الولد
نز منها الطمث حتى اصطبغت منه الزوايا الحجرية
يهرب الطفل على جلبابه بقعة دم .
عندما تضرب ساعات الميادين تمام العاشرة
يتخطى حائط الرؤيا فأكسوه بلحمي وعظامي

(أُصعِّد في السلم الدائري الذي ينتهي بالسقوط
وفي مفصلي الثلجُ، يهتز في أضلعي عنكبوت القنوط
هنا . . كنت في قرية النمل وحدي
وفي عتمة الليل يبكي دمي الطفلُ،
يشطرني خنجر الرعب طفليْن

ـ في ظلمة الروح ـ يبتدئان الحوار
بحنجرتي يتراشق صوتاها بالحجار
وفي قرية النمل ألقى ربيع «البلاجرا» بأزهاره
شارة في الصدور
صرخنا إلى أمهات مقطَّعة الثدي . .
في سنتي العاشرة
رأيت سقوف الظهيرة تهوي
وتهجر صوتي الخرافة
تطاردني بومة الصيف،
أبكي لأخفي خفايا التواصل،
أبكي إذا ما تساند فوق الثرى حجران
وفي ليلة الجوع ظللنا حلُمٌ بزهور المطر . .)

وأنا أُبحر في صوت التواشيح الظوامي
والمواويلِ الدوامي
وأرى في قمر الصرخة مهمازي ورمحي وحسامي
أركب الناقة ما بين شقوق الصحراء

قِربتي الصهدُ، ويأسي خيمتي،
والشمس في رأسي سفافيدُ الشواء . .

(توحَّدْتِ بالنهر والأرض حتى سمعتُكِ بوحا
يغمغم في كل ساقية خشبية
رأيتكِ مغمومة القلب في كل صوت
ومجهدة الوجه في كل تقطيبة واصفرار
ومطفأة العين في كل دار
ومرخيَّة الشعر في كل صفصافة،
ورأيتك مشبوحةً في الرياح
ودافئةً تتفجر منك الحدائق في ردهات القرار
تنفستُ ريحَك في كل دفقة ماء وفي كل
توقيعة من مطر . .)

وأنا أحمل في هودج أسفاري المخيفة
ذهب التاج وكنز الأمراء

ومراسيم العطاء

هللوا يا فقراء

هللوا يا فقراء

هللوا يا . .

* * *

كان في قلبيَ عش من نديف الزغب الأخضر

مجدول بمنديل النزيف

ويمامة

كلما أثقلني الحب رمت زهرة نار وعلامة

وأنا أخلع لحمي وعظامي

أخصف الأوراق ـ مما تحمل الريح ـ قناعا

أعبر البحر وأمشي في الثغور

أدخل الأرض وأغفو في الجذور

وأعود . .

* * *

حينما أنكرني صوتي وأنكرتُ قداسات الجسد

كنت ـ من رحلة موتي ـ

عائدا . . أدخل أبواب المدينة

فأرى فوق الرماح

جسدي الميتَ مصلوبا ،

ومنديل النزيف

مزقا فارغة ،

أنظر في دائرة الأفق الفراغ . .

٣/ ٩/ ١٩٧٠

من طقـوس مقـتل عمـر

١ـ صوتٌ عن الفصول :

هذي فصولُ المالِ

تمتد في الرمالِ

جذورُها ،

تشرب من سحائب الآلام والمخاضات التي

تُجهض في مصائر الرجالِ

تَخْضَرُّ من حراشف الجوع على الصدور أو

تمد فرعها عبر نوافذ الدموع أو

تطرح ظلَّها المعتَم في القرى وفي النجوع أو

تطرح زهرها الأحمر في حدائق الحرب

وزهرها الفضيَّ في أوسمة القضاة

والمعممين بالصمت أو الخيانة

تطرح من أزهارها الصفراء والخضراء
قصائد التشنُّج الطويل والمدائح
وكتبًا زانيةً وصحفًا ملعونة
ومدنا مخيفةً مأمونة
ورغوةً من الحديث لا تجيب عن تساؤل أو تطرح السؤال .

(تحدثي يا شجرة
عن معجزات المعدن الذي ينبت في الصلصال
مستجمعا عصارةَ السواعد الشقية المانحة المحرومة
وطارحًا من سحره في الثمرة
حلاوةً في شفة الأنذال
مرارةً في عصب الموال
تحدثي يا شجرة . .)

هذي فضول المال

تلمع في مجوهرات المومسات والعمائر المفروشة المجهَّزة

للقفز ـ من تواطؤات الجلد والتقوى ـ إلى الفرادس التي

تسرقها الأصابعُ المخاتلة

من كل آية رقيقة في سورة الرحمن

وبالتغافل اللئيم عن تفجُّرات الغضب الخلاق في الأنفال

والسير في تزاحمٍ وهرولة

حين تُقَسَّمُ الأسلابُ والغنائمُ التي

تَقْطُرُ من مقاتل الجماعة

وحين تبدأ الخيانةُ ـ الفرارُ من بشائر الطاعون والمجاعة

بالبحث في الرقوق والذاكر اللئيمة

عن آية تبيح ما يُشرب من دم وعرق مسروق . .

هذي فضول المال

تطرح ظلها الممقوت في رشاقة المآذن

وأضحيات الرعب والقباب

(تحدتي يا شجرة

عن هذه الفاكهة المعطوبة

والأعين المثقوبة

وزهرة الدماء فوق شوكة القلوب

تحدثي يا شجرة . .)

١٤/ ١٢/ ١٩٦٧

٢ ـ صوت آخر عن الفضول

سبحان من حوَّلها في ظلمة الخزائن
قوافلاً تعود بالمدائن
زخارفا ترقص في المآذن
مزارعا توالدت ، سفائن
تحمل جوف البحر . .

(تحدثي يا شجرة
عن غُصُنٍ نأخذ منه الرمح
عن ظلمة نبدأ منها الفتح
وشهقةٍ يسكب منها الجرح
الغضبَ الجنينَ والفجاءةَ المنتظرة
تحدثي يا شجرة . .)

سبحان من حوَّلها في عتمة الدفاتر
عصفورةً تنسج عشها الخفيَّ في الضمائر
وصيحةً مكتومة تسافر
من شفة لشفة . . تفرخ في الصدور
وتشحذ الخناجر.

(تحدثي يا شجرة
عن لمعة الحقد التي تنبت في العيون حينما
تنظر ما تحمله الرحال والقوافل
وما يحوك في الصدور من تآمر تكتمه المخاوف
تحدثي يا شجرة
حديثك الذي يُغرس في الضلوع
من قبل أن تدركنا الفتنة والضغينة
تحدثي يا شجرة

٣ ـ التحامُ الظلّ بالظل

بيني وبينك أيها الصبح
ستٌّ من المدن العتيقة
بيني وبينك من شوارعها الوجوهُ الصُّفْرُ واللغةُ العتيقة
بيني وبينك من نوافذها زجاجُ اليأس والسُّتُر العتيقة
بيني وبينك أيها الصبح
غيمٌ تبرْعَمَ فيه السوسُ والملحُ
أرضٌ تفتَّقَ وجهُها المشقوق
عن وردةٍ ألوانُها جرحُ
وفراشةِ الفخّار والخِرَقِ العتيقة .

* * *

كنا معًا . . بيني وبينكَ خطوتان

(كنتُ صراخَ اللحم تحت السوط
وشهقةَ الرفض إذا تقطَّعتْ مسافةُ الكلام
بالسيف أو شعائر الإعدام
كنتُ احتجاجَ الضوءِ والظلام
وثغرةً تمرق منها الريح
لليائسين من أرغفة الولاة
والخائفين من ملاحقات العسس الليليِّ
أو وشاية الآذان في الجدران) .

بيني وبينكَ من مسافات التوجُّسِ والحوار
وأخوَّةِ السجن المؤقَّتِ والشجار
تتفتَّح السحبُ الحبالى الممطرة
ماءً يشير إلي خطاك .

* * *

كنا معًا . . ظلي وظلُّكَ مهرتان
تتواثبان وتعلكان الحمحم

كنا معًا رمحين ينقذفان للأرض الجديدة والأغاني المبهمة

حتي إذا جئنا قرى النمل المحاصَر في الشقوق

أعطاك ـ من حرص الجِبِلَّةِ والطقوس ـ

عرشًا وأعطاني السكوت .

(أصبحتُ مهمازًا وحيدًا يلبس الصدآ

جملاً ـ بعُرِّ الصمت ـ يبكي الماءَ والكلآ

بيني وبين مدينة الأحياء والموتي

قمرٌ قد انطفآ

زمنٌ تصلَّبَ ، صحراءٌ من الأصداء . .)

* * *

لو أنني لم أسأم التحديق في نخل السراب

وأسِرَّة الصبّار والصمت المدجَّجِ بالحراب

لظللتُ مبتعدًا ومنشقًا يخايلني زواجُ الريح

والماءُ المقطَّرُ في السحاب

وظللتُ حلمًا لا يريحُكَ إن غَفَوْتَ

(وحلَّت الخيبة

من بيننا زالتْ مسافاتُ التلفُّتِ والكلام

فتوحَّدَ الظلان والصوتان ،

لم أسمع خطى الموت الدفين

وصرختُ كي أنجو فأذهلني السقوط

وعلي جبينيَ من دمائك آيتان :

موتي بموتك ، وانتظاري المرتعد

ـ في برزخ الأحياء ـ حتي تشرق

الشمس الجديدةُ بالقصاص . .)

١٩/ ٤/ ١٩٧٠

٤ـ عن طقوس الهيبة المسرحية

ـ ١ ـ

. . وكانت الأرغفة الجديدة

ـ ما بيننا ـ قنطرة ممدودة

تعبر فوقها أحلامُنا الساغبةُ المضفَّرة

من دمنا الطالع في السنبلة المعقودة

(العيدُ في الساحات ، والأعلامْ

تحجب وجهَ الشمس

والأوجُه المنقوعةُ العينين في الآلامْ

قد طأطأتْ لا تستطيع الهمس

في مأتمٍ أم عرس

ـ كانت صفوفُهم تضجُّ ـ أم في ساحة الإعدام ؟!)

كانت شظايا العرق المخبوء
خريطةً للإرث ، شجرًا جذورُه تشابُكُ الأنساب

كانت خطاي عودةً سرية
لكل ما تحمله ذاكرةُ الأحجار
من رعشة الإزميل وانتفاضة الولادة

(العيدُ في الساحات والأطيارْ
كانت تطير في اللهب
ترش سأمَ الجموع بالغضب
لكنها حطت على الأسلاك
كي تستريح لحظةً فاحترقت
تطايرتْ أشلاؤها بين الشعار والشعار) .

كانت وجوُهنا المشويّة
بالجوع والرعب وبالعطاء
تعود للقراءة الليلية

في كتب الأنساب وانتظارنا للدورة الألفيَّة
(كانت قبيلة النَّهب المباح والخيانةِ الشرعية
تلتفُّ من حولك حلقةً فحلقةً . .
فامتدت المسافة
ما بيننا . . تطلع كالخرافة
تصرخُ في أصواتنا الملتاعة
عصفورةُ احتجاجنا ورفضنا . . تطير
في دمها ،
لكنها تمر في تحولات الذمم الرواغة . .) .

٢ ـ تطهير مسرحي

في ساعات النازلة المخيفة
يموت في الدائرة الثلجية
هذا السجينُ في أقنعة الخليفة .

في ساحة الإعدام
ـ من فوق هذا المسرح المقام ـ
يسقط بيت المال
من جبة الإمام
و . . ينزل الستار
ويخرج المشاهدون دامعين ضاحكين . .

٤/ ٥/ ١٩٧٠

٥ـ الباب المحتـــرق

ـ ١ ـ

بدويٌّ ، نسج الرملُ له
من جلود الشّاءِ والصَّهْد خِباء
أنبت النخلُ له من ظمأ
كسنان الرمحِ في نبع الدماء
ورمى أرغفةَ الخوف له
وشواءً من جراد الصحراء
ملك الكون ثريدًا نيّئًا
وبكاءً في تهاويل النساء
وانتظارًا للردى يطلع من طعنة الثأر ورمح الخيلاء

وانتظارا للذي يدفنه
في صعيد الأرض أو صوت الحُداء .

ـ ٢ ـ

كانت الأرض صناديق لغات وشكاوى
كانت الشمس شظايا
تقلب العالمَ كالجفن ، وتعطي زهرةَ الحلم وإكليلَ السنابل
وأنا كنت أقاتل
شبحَ الطاغية القابع في كل ضمير
والملوكَ المتخفين بأسمال اليتامى الضائعين
وعروشَ الفقراء الخونة .

-٣-

حينما أدخلني الحارسُ أبوابَ الإمارات البعيدة
وتخطَّى بي الدهاليزَ وأبوابَ الجواري
ووقفت .
قال من خلف الستار:
يا أخا البدْوِ تعالْ
ما الذي تحمل من شكوى الرعية؟ !
عن فلان عن فلان أنه قال . .
فلم أسمع كليمات البقية

شدَّني وَشْيُ الستور الفارسية
وتهجِّي الكلمات الذهبية
وهي تمتدُّ فروعًا ودوائر.

(على سلَّم العنعنة
تدحرج لفظُ الدم المشتعل
أحاديثَ تخبو وتنفض عبر الشفاه مواثيقَها الباردة
فيأتلف الميتون على عتبات المجاعة
مع العسس المرتشي وحُداة القوافل
ويأتلف البيع بين الربا والنسيئة
وطقسِ التكافل

وأنت هناك . .
على درعك المرتهن
بقايا الوصايا
وشورى اقتسام المواريث ،
والشعبُ بين الزوايا
تبقَّتْ له رعدةٌ واحدة
قماطًا من المهد ينسجه الرملُ والجوعُ ،
ثلجًا من الرعب والشوك ينسجه الموتُ تحت الكفن .

ووجهكَ . . يا سيدَ الأوجه الصاعدة
من الزفرات المليئة والأغنيات
بدايةُ كلِّ الطقوس وآخرُها ،
كان موتك يمشي ويفتح كنز الممالك للجائعين
ويفتح من لغة الأرض بين الربوع
ومن أبجدياتها البائدة
مواني الرؤى والتواصل .

ووجهك تعويذة بين أيد مشقَّقَةٍ وصدورٍ نواغل
تُحَمِّلُ وزْرَ الطغاة ووزر الخنوع
وباسمك يفتتح الحرس المرتشي زمنًا للولاء
وأزمنة للسياط وأبنيةً للسجون
وباسمك تبكي الجموع) .

وأنا أخرج للشمس وإيقاع الخلاء
في انتظار الطعنة المرتجلة .

وأنا كنتُ أقاتل
فرسي تصهل ما بين الصفوف
وأنا أحمل في القلب مواريث الجهات السبع ،
والمستضعفون

ملكيون يقيمون العروش
بين تتويج وخلع وجلوس
ومراسيم انتظار الملكة .
(وأنا كنت أقاتل
علّني ألقي دمي فوق جبين الأمراء
وجبين الفقراء الخونة) .

٢٨/ ١٠/ ١٩٧٠

مرثيـــة عمــــر

طاردني في خُفَّةِ المقطوع

يضربني بالخنجر المطوي في عباءة الخلافة

متهمًا إيايَ بالعرافة

يطردني إلي مدائن الهزيمة

يجعلني حجَّتَه الغراءَ في مواقف القيامة

(بأنه جوعني ولم يجع !!

بأنه فَضَّحني ، غرَّبني ، في داخلي نفاني!!)

وجاءني معتذرًا أليفا

ساومني على خراج الصمت باللذائذ القاتلة المحرَّمة

علَّمني التنازلَ القميءَ في رشاقة وكبرياء

العالمُ ـ الخريطةُ الممزَّقة

العالمُ ـ الوجوهُ والملامحُ الملفَّقة
طاردني في خفة المقطوع
يضربني بالجوع . .

من أنت يا محدثي في الجذْر والفروع
من أنت يا مرتحلاً في لبن الضروع
وصائحًا مندلقا من الحوائط المخربة
وراكضا في عتمة السحابة
من أنت يا أمومةَ الألفة يا أبوَّةَ الغرابة
يا نَهَرًا في الصيف ، يا فاكهة في كرمة الخريف
من أنت يا مغيَّبَ العينين في حمائل السيوف ! !

أخرجني تحولُ الفصول
وساقني من حفرة الرفض إلى شوارع القبول
أوقفني منتظرا فاكهة الألوان
فنشرت نسيجَها عناكبُ الذبول
واسْتَنْوقَتْ جمالُنا وأذَّنَتْ في الأسطح الدجاجة .

مسافرٌ في اليأس والكآبة
تضربني ـ في عَدْوِها ـ حوافرُ السحابة
أقرأ ما تكتبه الشمس وما تكتبه الكروم
أعود من بوابة الخروج
مكتهلاً، تركض في ملامحي الكآبة
تغسلني مواحقُ النسيان من ذاكرتي،
تحترق الكتابة
وتنبُتُ الحرابُ في الحناجر
وتعشب الخناجر
وتنبت العيون في أقفية الزحام
ويؤكل اليأس على موائد الطعام
متبَّلاً بالسحت والحرام . .

الرجل الملثم الفقيرُ . في متاهة الصحراء
قابلني، أوطأني الرداءَ والعباءةَ المرقَّعة
أقعدني في ظله، قاسمني لقيمةً،

ثم رمى لثامه . . فاشتعلتْ في اللحية الفصول
والتمعتْ في عينه شرارةُ البدء وغيمةُ الوصول
وانتقلت ما بيننا قِرْبَتُه باليأس والعزاء
وانشعبَ الحوارْ . .
(أخرج من أكمامه دِرِّتَه القديمة) .

الرجل الملثم الفقير
قاسمني ثريدةَ الرمل كأننا سنأكل الصحراء
قاسمني الجرادِقَ المرَّةَ والسراب
وقال لي : تستوجب الحدَّ إذا زنيت
فما تقول في عالمك ـ الربيطة
والنَّهَرِ الديُّوثِ والطمي الذي يُنبت زَهَرَ اللواطة
وشجرَ الزنا وسفلسَ الكروم ! !
وقال لي : تخون لو أضعتَ بَعْرَةً من إبل الجماعة
فما تقول في من ضيَّعَ الإنسانَ في ارتداغه الذليل ! !
وما تقول في من خالس الرياحَ سرَّها

روَّضها ، أقامها شجيرةً عارية أو حائطًا أو مقصلة ! !

وما تقول في من روض النهر

وجَزَّ رأسَه أقامه خَرّارةً ومزبلة ! !

وقال لي : ما بين شَرَكِ الشك وشَرَكِ اليقين

دخلتَ في هاوية التوحيد سائلا

فهالَكَ الصمتُ وهالَكَ الظلام

فما تقول في الآلهة الألف التي تموت أو تُبعث كل عام

تأتيك في طقوسها تسألك الصمت وتطلب الخراج

تسألك العبورَ في القناطر الموسومة

تمنحك الحياة لو دخلت طائعا في السَّلَبِ المنهوبِ

والغنيمة

تمنحك النصرَ إذا قنعْتَ بالهزيمة ! !

الحرس الذي يَدَّرِعُ الآن بكل لون

يثقب وجه الأرض

يقيم حائط السجن أمام كل بيت

يزرع في حدائق العالم شجر الكراهة . .
ألبسني عباءةَ اليأس وظمأ الغمام
ونقشتْ دِرَّتُه خطوطَها الزرقاءَ في القلب وفي العظام
حَمَّلني السلام
لنَهَرِ العقم الذي يطفح في الزحام
والزور والأرصفة المراوغة .

حَمَّلني السلام
للجملِ الناقِة أو للبشر الأنعام
والجوعِ في القري الممرَّغة .

حَمَّلني السلام
لكل ما يُكتب أو يُقال
خَيَّرَني ما بين أن أحمل شارة النفي وبيرقَ الظلام
أو أبدأ الرقصَ على طقوس الطرق الواضحة العريضة

(ما طعم ما يُدِرُّهُ ثدياك يا مومسَنا المتوجه؟!
حليبُك الممزوجُ بالقصائد المضرجة
أحرقني . . فاخترت أن أجوع) .

قابلني مرقَّعَ العباءة
في كل رقعةٍ دماءُ قريةٍ ،
والخيطُ من حشائش الحقول

رأيته يضحك أو يبكي بكل لهجة
سمعته يقول
أغنيةً داميةَ الإيقاع تسأل الرِّفْدَ وتسأل الفصول
أن تملأ المخلاةَ بالقمح ليبدأ السفر
من كل ما استبُيح من قرى ومن مدن
إلى طريقه السفليِّ في المناجم الحرام . .

١٩٦٦/٩/٥

رقم الإيداع ١٠٣٠٧ /٩٨
الترقيم الدولى I - 0482 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى - ت:٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

دار الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري ـ رابعة العدوية ـ مدينة نصر
ص. ب : ٢٣ البانوراما ـ تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت : ص. ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)